بـــلاد الـــروم

قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه

اللواء الركن محمود شيت خطاب



فرزة من : مجلة المجمع العلمي العراقي
الجزء الثالث ـ المجلد الخامس والثلاثون

شوال ١٤٠٤ هـ
تموز ١٩٨٤ م

بـــلاد الـــروم

قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(عضو المجمع)

الموقع والحدود

كان المسلمون يسمون أقاليم الدولة البيزنطية في جملتها : بلاد الروم . ولفظ : الرومى أي الروماني في العصور الاسلامية الاولى ، كانت ترادف عند المسلمين كلمة : المسيحي أو النصراني . سواء كان الموصوف بها من اليونان أو اللاتين .

وكانوا يسمون البحر الابيض المتوسط : بحر الروم ، اسماً لاقرب الاقاليم المسيحية من بلاد الاسلام .

ومن ثم صارت بلاد الروم اسماً : لآسيا الصغرى عند العرب ، وهي البلاد العظيمة التي انتقلت نهائياً في نهاية السنة المئة الخامسة الهجرية (القرن الحادي عشر الميلادي) الى أيدي المسلمين باستيلاء السلاجقة عليها .

وكانت الحدود بين بلاد المسلمين وبلاد الروم في أيام بنى أمية وبنى العباس ، بل حتى قبل أن يقضي المغول القضاء المبرم على الدولة العباسية في بغداد بما ينيف على قرن ونصف قرن ، تتألف من سلسلتى جبال طوروس وجبال طوروس الداخلة (أنتى طوروس) . وكان يحد هذه الحدود ويحميها

خط طويل من القلاع التي تعرف بالثغور ، يمتـــد من (ملطية) على الفرات الأعلى ، الى (طرسوس) بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكان المسلمون يفتحون هذه القلاع تارة ويحتلها الروم تارة أخرى .

وتنقسم هذه القلاع الى مجموعتين ، احداهما تحمى الجزيرة ، وتسمى : ثغور الجزيرة ، وهي الشمالية الشرقية ، والثانية تحمي الشـــام ، وتسمى : الثغور الشامية ، وهي الجنوبية الغربية .

وكان من ثغور الجزيرة : ملطية ، وزبطرة ، وحصن منصور ، وبهنسا ، والحدث[1] . ثم مرعش ، والهارونية ، والكنيســـة وعين زربة (عين زربى) ، وهي الثغور الشامية ، أما الثغور الشامية التي بالقرب من الســـاحل لخليج الاسكندرونة فهي : المصيصة ، وأذنة ، وطرطوس .

يحدها من الغرب : بحر الروم وخليج القسطنطينية وبحر القرم ، ومن الجنوب بلاد الشام والجزيرة ، ومن الشرق ارمينية ،ومن الشمال بلاد الكرج وبحر القرم .

الثغــور الشــامية

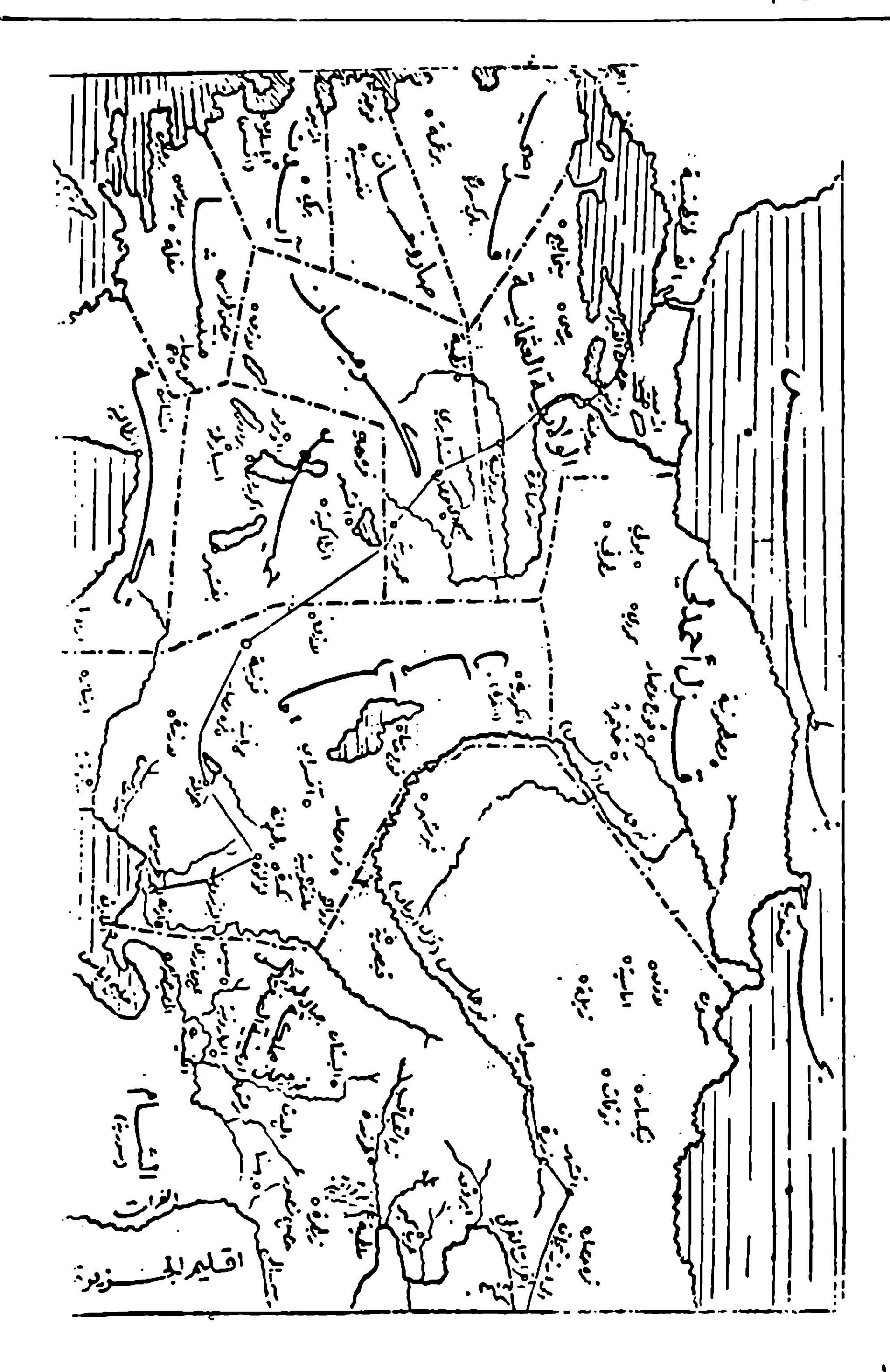
١ ــ مَرْعش :

سماها الروم : (مراسيون Marasion) ، ويقال انها قامت في موضع جرمانيقية .

وهي مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم ، لها سوران وخندق ، وفي

---

(١) انظر ما ورد عن هذه الثغور في بحث : بلاد الجزيرة قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه .



وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ثم حصّنها هرون الرشيد أيضا •

٢ ـ عين زَرْبَي = عين زَرْبَة :

بلد يشبه مدن الغور ، بها نخيل ، وهي خصبة واسعة الثمار والزروع والمراعي ، ولها سور مكين ، تقع في الجبل ، ذات قلعة مستعلية عنها ، وهي من الثغور من نواحي المصيصة •

٣ ـ الهارونية :

مدينة صغيرة بالقرب من مرعش بالثغور الشامية في طرف جبل اللكام ، استحدثها هرون الرشيد ، وعليها سوران وأبواب حديد • وجبل اللكام : اسم اطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبال أنتي طوروس •

٤ ـ الكنيسة :

بلد بثغر المصيصة ، ويقال لها : الكنيسة السوداء ، وسميت بالسوداء ، لأنها بنيت بحجارة سود ، بناها الروم قديما ، وبها حصن منيع قديم أخرب فيما أخرب منها ، ثم أمر هرون الرشيد ببنائها واعادتها الى ماكانت عليه وتحصينها ، وندب اليها المقاتلة ، وزادهم في العطاء ، بينها وبين الهارونية اثنا عشر ميلا •

٦ ـ المصِّيصَة :

حصن على ساحل البحر قرب المصيصة ، سمى : المثقب ، لأنه في جبال كلها مثقبة فيها كوى كبار ، وكان أول من بنى حصن المثقب هشام بن عبدالملك •

٦ ـ المصيصَة :

مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم ، تقارب

طرسوس ، وهي من ثغور الاسلام ، ذات سور وخمسة أبواب ، فتحها عبدالله ابن عبدالملك وبنى حصنها على أساسه القديم ، ووضع فيها سكانا من الجند من أرباب البأس والنخوة ، وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن . وبعد وقت قصير من فتحها نشأ في الجانب الآخر من نهر جيحان (نهر بيرامس) ربض أو ضاحية جديدة سميت : كفربيا ، بنى فيها عمر بن عبدالعزيز جامعا اتخذ فيه صهريجا ، ثم ان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أنشأ ربضا ثالثا في شرقي نهر جيحان يقال له : الخصوص ، وبنى عليه حائطا وأقام عليه باب خشب ، وخندقَ خندقا .

٧ ــ أذَنَة :

بلد من الثغور قرب المصيصة ، تقع على نهر سيحان (نهر سارس) ، وهي مدينة خصبة عامرة حصينة .

٨ ــ طَرَسُوس :

مدينة من أهم مدن الثغور الشامية ، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، بينها وبين أذنة ستة فراسخ ، عليها سوران وخندق واسع ، ولها ستة أبواب ، وهي تشرف على الدرب المشهور عبر طوروس .

وعني الخلفاء العباسيون الأولون ، ولاسيما المهدي وهرون الرشيد بتحصين طرسوس وشحنها بالرجال .

المدن الأخرى

١ ــ العلايا :

بلدة محدثة ، أنشأها علاءالدين أحد ملوك السلاجقة فنسبت اليه ،

فقيل لها : العلائية ، ثم خففها الناس وقالوا : العلايا •

وهي بلدة صغيرة على بحر الروم ، وهي من فرض تلك البلاد ، وهي في الجنوب من أنطالية على مسيرة يومين منها ، عليها سور ، وهي كثيرة المياه والبساتين ، ومساحتها أصغر من انطالية •

٢ ــ أنطاليــة :

بلدة كبيرة من مشاهير بلاد الروم ، وهي حصن من حصون الروم المنيعة تقع على بحر الروم ، ولها بابان الى البحر والى البر ، والمياه جارية بداخل البلد وخارجه ، ولها بساتين كثيرة من المحمضات وأنواع الفواكه ، تقع غربي قونية وعلى مسافة عشرة أيام منها •

٣ ــ أنْقِـرَة :

اسم للمدينة المسماة : أنكورية ، وهي بلدة لها قلعة على تل عال ، وليس لها بساتين ولا ماء سارح ، وشرب أهلها من آبار نبع قريبة المدى ، وبين أنقرة وقسطمونية خمسة أيام : قسطمونية في الشرق والشمال ، وأنقرة في الغرب والجنوب •

وهي مدينة قديمة ، ورد ذكرها في شعر امرىء القيس ، كما ورد ذكرها في شعر أبي تمام الطائي أيضا •

٤ ــ عَموريَّـة :

بلدة كبيرة ، ولها قلعة داخلها حصينة ، وأكثر ساكنيها التركمان ، وبها بساتين قليلة ، ولها أعين ونهر ، وهي التي فتحها المعتصم الخليفة العباسي في سنة (٢٢٣ هـ) وفتح أنقرة بسبب أسر العلوية في قصة طويلة معروفة ، وكانت من أعظم فتوح الاسلام •

٥ ـ آقْشار = آقْشَهِر :

من أنزه المدن ، وبها بساتين كثيرة وفواكه مفضلة ، تبعد عن قونية ثلاثة أيام شمالا بغرب .

٦ ـ قونِيَة :

مدينة مشهورة ، لها جبل في جنوبيها ، ينبع منه نهر ويدخل الى قونية من غربها ، ولها بساتين من جهة الجبل يقرب من ثلاثة فراسخ ، وبقلعتها تربة افلاطون الحكيم ، ونهرها يسقى بساتينها ثم تصير مياهه بحيرة ومروجا ، والجبال دائرة بها من كل جانب ، وتبعد عنها من جهة الشمال ، والفواكه بها كثيرة ، وهناك المشمش المعروف بقمرالدين .

٧ ـ قَيْسارِيَّة = قَيْصارِيَّة :

بلدة كبيرة ذات أشجار وبساتين وفواكه وعيون تدخل اليها ، وداخلها قلعة حصينة ، وبها دار للسلطنة ، وهي منسوبة الى قيصر ، وفي شرقيها مدينة سيواس ، وبين قيسارية وأقصرا أربعة مراحل .

٨ ـ أقصرا = أقسرا :

بلدة في عرض آقشار وأطول منها ، كثيرة الفواكه ، تحمل منها الى قونية على العجل في بسيط من الارض كلها مراع وأودية ، بينها وبين قونية ثمانية وأربعون فرسخا وكذلك من أقصرا الى مدينة قيسارية ، وبين أقصرا وقونية ثلاث مراحل .

وهي ذات أشجار وفواكه كثيرة ، ولها نهر كبير داخل في وسط البلد ، ويدخل الماء الى بعض بيوتها من نهر آخر ، ولها قلعة كبيرة حصينة في وسط البلد .

٩ ــ هَرَقْلَــة :

بلدة في شرقي نهر ينزل من جبل العلايا الى آخر سنوب ، وهرقــلة تقع قرب البحر ، وفي شرقيها جبل الكهف ، ويقال : ان فيــه الكهف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف •

١٠ــ أماسـية :

بلدة كبيرة ، لها سور وقلعة وبساتين ونهر كبير ونواعير تسقى بهــا ، مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين ، بينها وبين سنوب سـتة أيام ، فيها معدن الفضــة •

١١ــ مَلَطْيَــة :

بلدة ذات أشجار وفواكه ارصفها تحف بها جبال كثيرة الجوز ، وسائر الثمار مباحة لا مالك لها ، وهي قاعدة الثغور ، مسورة في بسيط من الارض والجبال تحف بها من بعد ، ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمـر بسور البلد ، وهي شديدة البرد ، تقع في جنوبي سيواس بينهما ثلاث مراحل، وفي شمالي زبطرة وبينهما مرحلة كبيرة •

وللطية أيضا قنى تدخل البلد وتجري في دوره وسككه •

١٢ــ سِيْواس :

وهي بلدة كبيرة مشهورة ، وبها قلعة صغيرة ، وهي ذات أعين ، والشجر بها قليل ، ونهرها الكبير يبعد عنها بمقدار فرسخ ، وهي في بسيط من الارض، المسافة بينها وبين قيسارية ستون ميلا ، تقع مدينة أرزن في شرقيها ، وسيواس شديدة البــرد •

١٣ـ تَوْقَات :

بلدة صغيرة في لحف الجبل ، تقع بين قونية وسيواس ، ذات قلعة حصينة وأبنية مكينة ، بينها وبين سيواس يومان ، لها بساتين وأشجار وفواكه جيدة ، معتدلة في الحرارة والبرودة ، وهي شمالي سيواس •

١٤ـ أرْزَن :

مدينة مشهورة قرب خلاط ، وهي آخر بلاد الروم من جهة الشرق ، وفي شرقيها وشماليها منبع الفرات •

١٥ـ القسطَنْطِينية :

مدينة شهيرة جدا ، كانت عاصمة الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م) ، وهي مسورة بسور حصين ، ارتفاعه مابين أربعة عشر قدما وعشرين قدما ، ومحيطها أكثر من أثني عشر ميلا •

١٦ـ مرج الأسقف :

موضع قريب من غرب بدنوس (البذندون) •

١٧ـ مَطْمُورة :

بلد في ثغور الروم ، بناحية طرسوس •

١٨ـ ذو القلاع :

كانت قلعة مشهورة ، واسمها عند الروم تفسيره : الحصن الذي مع الكواكب •

ويبدو أنها تطابق : (سيديروبوليس Sideropolis) في بلاد القباذق •

١٩ـ اللؤلؤة :

قلعة قرب طرسوس ، واسمها عند البيزنطيين : لولون ، ، سماها العرب لؤلؤة ، ليضفوا على اسمها معنى من المعاني •

٢٠ـ طُوانـة :

بلد بثغور المصيصة ، اسمها القديم : تيانا •

٢١ـ الصَفْصـاف :

كورة من كور المصيصة ، ويرد ذكرها أحيانا : مدينة الصفصاف أو حصن الصفصاف ، وهي قرب لؤلؤة على طريق القسطنطينية •

٢٢ـ حصن الصقالبة :

حصن يقع في جنوبي البذندون ، وسمى باسم الصقالبة الذين فروا من البيزنطيين وعسكروا فيه • وكان مروان بن محمد آخر خلفـاء بني أمية قد جعلهم في هذا الحصن لحراسة الدرب •

٢٣ـ مَلَقونيَـة :

بلد من بلاد الروم ، قريب من قونية ، تفسيره مقطع الرحى ، لان من جبلها يقطع رحى تلك البلاد •

٢٤ـ أفْسوس :

بلد بثغور طرسوس في بلاد الروم •

٢٥ـ أنْطـاكِيَـة :

مدينة مشهورة تعتبر قصبة العواصم من الثغور الشامية ، وهي من أعيان

البلاد وأمهاتها ، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير •

ولها سور فيه ثلاثمائة وستون برجا من أبراج المراقبة ، وشكل البلد كنصف دائرة ، قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل الى قمته ، وفي رأس الجبل دار السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة ، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب •

وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين ، ولها مرسى في بليد يقال له : السويدية ترسى فيه المراكب ، فترفع الأمتعة الى أنطاكية على الدواب •

٢٦ــ أطْرابزُنْدَة = طرابزون :

مدينة من أعيان مدن الروم على ضفة القسطنطينية الشرقي ، وهو المعروف ببحر بنطس (البحر الأسود) • والى هذه المدينة منتهى جبل القبق ثم يقطعه البحر ، وهي مشرفة على البحر وماؤه محيط بها كالخندق محفور حولها بأسرها ، وعليه قنطرة اذا دهمهم عدو قطعوها ، ولها اقليم واسع ، ومقابلها مدينة كراسنده على ساحل هذا البحر الغربي ، وولايتها كلها جبال وعرة ، وهي من أعمال القسطنطينية •

وهي أجل ميناء ، كانت تجلب اليها السلع من القسطنطينية وتحمل منها الى بلاد الاسلام • وكان التجار العرب ووكلاؤهم ينقلون السلع منها عبر الجبال الى ملطية وغيرها من مدن الفرات الأعلى ، وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليوناني ، وثياب الصوف والديباج والأكسية الرومية ، وكلها كان يجلب بحرا من الخليج الى البسفور •

الجبــال والأنهار

١ ــ الجبــال :

بلاد الروم ، أو ما يطلق عليها الجغرافيون المحدثون اسم : آسيا الصغرى (تركيا الحديثة) ، عبارة عن شبه جزيرة عظيمة مكونة لهضبة تحدها الجبال ، وتنحدر على وجه العموم نحو البحر الأسود [٢] .

وتقطع هضبة آسيا الصغرى سلسلة بُنْتِك في الشمال وجبال طوروس في الجنوب [٣] .

وجبال بلاد الروم المهمة هي : طوروس ، وأنتى طوروس ، وهما سلسلتان جبليتان كانتا الحدود بين بلاد المسلمين والروم في أيام بني أمية وبني العباس، وكان يعين هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع تعرف بالثغور ، يمتــد من ملطية على الفرات الاعلى الى طرسوس بالقرب من البحر الابيض المتوسط، ومن أهم هذه الثغور : المصيصة ، وأذنة ، وطرسوس .

وجبل اللكام اسم أطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبــال أنتى طوروس [٤] ، وقالوا في وصفه : «الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابــن ليون والمصيصة وطرسوس » [٥] ، ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر ، فيسمى هناك جبل القبق [٦] ، وهذا يتصل بجبال القوقــاز

---

(٢) الجغرافية العمومية ــ اسمذارد بالاشــتراك ــ القــاهرة ــ ١٩١٩ ــ ص (١٨١) .
(٣) الجغرافية العمومية ــ (١٦٩) .
(٤) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٢) .
(٥) معجم البلدان (٧ / ٣٣٧) .
(٦) معجم البلدان (٧ / ٣٢٠) .

الممتدة شمالا وبجبال هندكوش التي تتصل بجبال هملايا [٧] •

ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة ، سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص في غزواتهم السنوية لبلاد الروم •

الدرب الأول : درب الحدث ، وهو في الشمال الشرقي ، وكان من مرعش فشمالا الى (أبلستين Ablastin) ، وقد عرفت هذه المدينة بـ : (البستان) ، وهي : (أبلستا البيزنطية Ablastho) أي (عربسوس اليونانية Arabissus) ، وكان يحمى هذا الدرب حصن (الحدث Adatha

والدرب الثاني : وكثيرا ماكان يسلك في الأزمنة القديمة ، وهو الدرب الضارب شمالا من طرسوس ، ومنه يأخذ الطريق العام الى القسطنطينية ، وكان هذا الطريق هو الذي يسلكه سعاة البريد وتمر منه القوافل والوفود ، كما أنه الطريق التي تتبعه موجات المحاربين من المسلمين والنصارى ، وكان هذا الدرب يعرف في قسمه الجنوبي بدرب السلامة • وقد وصفه ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك ، فقال : «من طرسوس الى العليق اثنا عشر ميلا ، ثم الى الرهوة ـ أي المكان المنخفض ولعلها : مبسكرينة Mopsukrene القديمة ـ ثم الى الجوزات اثنا عشر ميلا ، ثم الى الجردقوب سبعة أميال ، ثم الى البذندون Podandos سبعة أميال ، ثم الى معسكر الملك على حمّة لؤلؤة ـ لولون Loulon ـ والصفصاف عشرة أميال ـ قرب فوستينوبوليس Fanstinopolis ـ وتصير الى معسكر الملك وقد قطعت الدرب ـ النهاية الشمالية من الدرب الذي اخترق الجبل ـ وأصحرت • ومن معسكر الملك الى وادي الطرفاء اثنا عشر ميلا ، ثم الى منى

(٧) الجغرافية العمومية (١٦٩) .

عشرون ميلا ، ثم الى نهر هرقلة ــ وهرقلة هي أراكيلة الحديثــة وهركليــة Heraclia عند الروم ــ اثنــا عشر ميــلا ، ثم الى اللبن ثمــانية أميــال ، ثم الى رأس الغابة خمسة عشر ميلا • ثم الى المسكنين ستة عشر ميلا ، ثم الى عين برغوث اثنا عشر ميلا، ثم الى نهر الاحساء ــ أي النهر الذي تحت الأرض ــ ثمــانية عشر ميــلا ، ثــم الى ربــض قونيــة ــ ايكونيــوم Iconium ثمانية عشر ميلا ، ثم الى العلمين خمسة عشر ميلا ، ثم الى ابرومسمانة عشرون ميلا ، ثم الى وادي الجوز اثنا عشر ميــلا ، ثم الى عموريــة ــ آموريــون Amorion ــ اثنا عشر ميلا » • وطريق آخر : «من العلمين الى عمورية يبدأ من العلمين الى قرى نصر الاقريطي خمسة عشر ميلا ، ثم الى رأس بحيرة الباسليون ــ بحيرة الاربعين شهيدا ــ عشرة أميال ، ثم الى السند عشرة أميال، ثم الى حصن سنادة ثمانية عشر ميلا ــ وسنادة هي سنادس Synades ثم الى مغل خمسة وعشرون ميلا ، ثم الى غابة عمورية ثلاثون ميلا ، ثم الى قرى الحرّاب خمسة عشر ميــلا ، ثــم الى صــاغرى ــ وهو Sangarius نهر عمورية ميلان ، ثم الى العلج اثنا عشر ميلا ، ثم الى فلامى الغابة خمســة عشر ميلا ، ثم الى حصن اليهود اثنا عشر ميلا ، ثم الى سندابرى ــ سنتابريس Santabaris ثمانية عشر ميلا ، ثم الى مرج حمر الملك في دروليــة ــ دوريليــوم Dorylaeum خمسة وثلاثون ميلا ، ثم الى حصن غروبلي خمسة عشر ميلا ، ثم الى كنائس الملك ــ وهي Basilica of Anno Comnena ثلاثة أميال ، ثم الى التلول خمسة وعشرون ميلا ، ثم الى الأكوار خمسة عشر ميلا ، ثم الى ملاجنة خمســة عشر ميلا ــ وملاجنــة هي Malagina ثم الى اصطبل الملك خمسة أميال ، ثم الى حصن الغبراء ــ وهي كيبوتــس Kibotos ــ ثلاثون ميلا ، ثــم الى الخليــج ــ وهــو بوســفور

القسطنطينية Bosporus ـ أربعة وعشرون ميلا ، ونيقية بازاء الغبراء (أي جنوب الغبراء) [٨] •

وهذا هو مايطلق عليه الدرب ، واذا أطلق هذا اللفظ أريد به مابـين طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرب ، واياه عنى امرؤ القيس بقوله :

بـكى صـاحبي لمـا رأى الدرب دونـه
وأيقـــن أنـــا لاحقـــان بقَيـصرا

فقلـت لـه لا تبـك عينـك انمـا
نحـاول مُلـكاً أو نمـوت فنُعذرا[٩]

ولجبـال طورس وأنتى طورس فروع يذكر قسـماً منها البلـدانيون المسلمون بأسماء مختلفة ، وهي عبارة عن فروع من طورس وأنتى طورس •

٢ ـ الأنهـار :

أهم أنهار بلاد الروم نهران هما : سيحان وجيحان ، وقد أطلق المسلمون على نهر (سارس Sarus) اسم نهر سيحان ، وأطلقوا على نهر (بيرامس) اسم نهر جيحان ، وكانا حداً مائياً بين بلاد المسلمين وبلاد الروم •

ومنابع هذين النهرين في المرتفعات شمال ارمينية الصغرى ، وكان نهر جيحان الذي كان يقارب نهر الفرات في الكبر ، وتسميه العامة : جهان ، يسير من الشمال الى الجنوب بين جبال في حـدود الروم ، حتى يمر بالمصيصة من

(٨) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٠٠ و ١١٠ و ١١٣) وقد جاء في (١٠٢ ـ ١٠٣) وصف طرق تختلف بعض الشيء عن هذا الطريق ، وانظـر كتاب بلدان الخلافة الشرقية (١٦٦ ـ ١٦٧) .
(٩) معجم البلدان (٤ / ٤٨) .

الهرمل) بين جوسية [١٤] والراس ويمر بوادٍ هناك ، وينبع من هنـاك غالب النهر المذكور من موضع يقال له : (مغارة الراهب) • ويسير شـمالا حتى يتجاوز جوسية ويصب في بحـيرة : قَدَس [١٥] ، في غربي حمص ، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص الى : الرستن [١٦] ، الى حماة ، ثم الى شيزر [١٧] ثم الى بحيرة : أفامية • ثم يخرج من بحيرة أفامية ويمر على : دركوش ، الى جسر الحديد ، وذلك جميعه في شرقي جبل اللكام •

فاذا وصل الى جسر الحديد ، ينقطع الجبل المذكور هنـاك ، ويستدير النهر المذكور ، ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ، ويمر على سـور أنطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية [١٨] •

ويصب في نهر الأرنط المـذكور عدة أنهر ، منهـا نهر منبعه من تحت أفامية ، يسير مغرباً الى بحيرة أفامية ، ويختلط بنهر حماة • ومنها نهر في شمالي أفامية على نحو ميلين ويعرف بالنهر الكبير ، يسير مداً قريباً ويصب أيضاً في بحيرة أفامية ، ويخرجان منها مع نهر الأرنط • ومنها النهر الاسـود ، يجرى من الشمال ، ويمر تحت دربساك [١٩] • ونهر يغرا [٢٠] ، ومنبعه قريب يغرا ،

---

(١٤) جوسية : قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق انظر معجم البلدان (٣ / ١٧١) .

(١٥) قدس : بلد قرب حمص ، تضاف بحيرة قدس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٨٠ – ٨١) و (٧ / ٣٥) .

(١٦) الرستن : بليدة قديمة بين حمص وحماة ، انظر معجم البلدان (٤ / ٢٤٩) .

(١٧) شيزر : قلعة قرب المعرة ، انظر معجم البلدان (٥ / ٣٢٤) .

(١٨) السويدية : شمالي اللاذقية ، وهي ميناء انطاكية ، انظر تقويم البلـدان (٢٩) .

(١٩) دربساك : بلدة من جند قنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ، انظر تقويم البلدان (٢٦٠ – ٢٦١) .

(٢٠) يغرا : قرية على نهر باسمها بالقرب من بحيرة افامية ، انظر تقويم البلدان (٤٢) .

ويصب في النهر الاسود المذكور ، ويصبان في بحيرة أنطاكية ، أيضا • ونهر عفرين [٢١] ، يأتي من بلاد الروم ، ويمر الراوندان [٢٢] الى الجومة[٢٣] ، ويمر في الجومة ويتجاوزها الى العمق [٢٤] ، ويختلط بالنهر الاسود ، وتصير هذه الانهر الثلاثة ، أعني النهر الاسود ونهر يغرا ونهر عفرين نهراً واحداً ، ويصب في بحيرة أنطاكية ، ويخرج منها ويصب في نهر عاصي حمـاة فوق أنطاكية بالغرب منها [٢٥] •

أما نهر أنقرة فيسقي مروجها وضياعها ، ويصب في بحر الروم ، وجريانه من الجنوب الى وسط الشمال [٢٦] •

أما نهر هرقلة ، فينزل من جبال العلايا[٢٧] الى جهة سنوب[٢٨] ، وهرقلة على شرقي هذا النهر قرب البحر [٢٩] •

والبردان نهر بثغر طرسوس ، مجيئه من بلاد الروم ، ويصب في بحـر الروم على ستة أميال من طرسوس : « ولا أعرف بالشام موضعاً أو نهراً يقال

---

(٢١) عفرين : اسم بلد على نهر باسمها ، انظر معجم البلـدان (٦ / ١٨٩) ، ويبدو انها قريبة من قنسرين وحلب .
(٢٢) الراوندان : قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة ، من نواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٤ / ٢١٤) .
(٢٣) الجومة : من نواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٣ / ١٧٦) .
(٢٤) العمق : كورة بنواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٦ / ٢٢٤) .
(٢٥) المعلومات الخاصة بنهر حماة من : تقويم البلدان (٤٩ ـ ٥٠) .
(٢٦) تقويم البلدان (٥٠ ـ ٥١) .
(٢٧) علايا : بلدة محدثة صغيرة في الجنوب من انطاليا على بحر الروم ، انظر تقويم البلدان (٣٨٠ ـ ٣٨١) .
(٢٨) سنوب : بلدة بالقرب من القسطنطينية .
(٢٩) تقويم البلدان (٥١) .

له : البردان غيره » • والبردان أيضاً نهر يسقى بســاتين مرعش وضياعها ، مخرجه من أصل جبل مرعش ، ويسمى هذا الجبل : الأقرع[٣٠] ، ويصب في بحر الروم ، وهو نهر كوردس القديم •

وعلى مرحلة طرسوس ، نهر كان يؤلف حداً مائياً في الازمنة الاولى ، وهو نهر (لموس Lamos) ، سماه العرب نهر : اللامس ، وعليه يكون الفداء اذا فودي بين المسلمين والروم[٣١] •

ونهر الفرات الذي ينبع من شمالي مدينة أرزن الروم وشرقيها ، وأرزن في آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق ، ثم يأخذ النهــر الى قرب ملطية ، ثم يأخذ الى سميساط ، ثم يأخذ مشرقاً ويتجاوز قلعة الروم ، وهي حصن منيع على جنوبي الفرات وغربيها ، ويمر الفرات مع جانب الحصن من شماليه وشرقيه ، ثم يدخل الفرات بلاد الشام ، ومنه الى العراق[٣٢] ، وقد ذكرنا الجزء الذي يمر ببلاد الروم فقط من هذا النهر •

أما نهر دجلة ، فينبع من جبال شهرزور فوق آمد على حدود ارمينية ، ويمر بجبال السلسلة ، ثم بمدينة آمد ومدينة ميافارقين في ديــار بكر اقليم الجزيرة قبل أن يصل الى مدينة الموصل •

وقد ذكرنا الجزء الذي يمر ببلاد الروم والجزيرة فقط من هذا النهر ، لان هذا ما نحتاج اليه في هذا المكان[٣٣] •

وتكثر العيون في بلاد الروم ، لتساقط الثلوج شتاء ، وذوبانها في الربيع

(٣٠) معجم البلدان (٢ / ١١٥) .
(٣١) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٥) .
(٣٢) انظر التفاصيل في : تقويم البلدان (٥١ ـ ٥٣) .
(٣٣) انظر التفاصيل في : تقويم البلدان (٥٣ ـ ٥٧) .

والصيف ، فترفد العيون والانهار بهذه المياه .

وعلى كل حال ، فان المياه متوفرة في جميع أصقاع بلاد الروم .

الموارد الاقتصادية

١ ـ مجمل الزراعة والصناعة :

بلاد الروم عموما غنية في انتاجها الزراعي ومواردها الطبيعية ، يرويها بضعة أنهر كبيرة وصغيرة ، وعيون كثيرة جداً ، والامطار ومياه الثلوج .

وقد ذكر قسم من البلدانيين المسلمين بعض ما يتيسر في تلك البلاد من موارد اقتصادية ينعم بها سكانها المحليون ، ويصدرون ما يفيض منهم على حاجاتهم المعيشية .

فالعلايا كثيرة المياه والبساتين[٣٤] ، وأنطالية بداخل البلد وخارجه المياه جارية ، ولها بساتين كثيرة من الحمضيات وأنواع الفواكه [٣٥] . وأنطاكية موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير ، تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون ، قراها متصلة ورياضها مزدهرة ومياهها متفجرة[٣٦] . ومدينة آق شهر (أقشار) من انزه المدن ، وبها بساتين كثيرة وفواكه مفضلة [٣٧] وأماسية لها بساتين ونهر كبير ونواعير تسقى بها ، وهي مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين[٣٨] . وأذنة في

(٣٤) تقويم البلدان (٣٨١) .
(٣٥) تقويم البلدان (٣٨١) .
(٣٦) معجم البلدان (١ / ٣٥٤) .
(٣٧) تقويم البلدان (٣٨٣) .
(٣٨) تقويم البلدان (٣٨٤) .

مرج وقرى متدانية جداً وعمارات كثيرة ، وهي على نهر سيحان[٣٩] . ومدينة توقات لها بساتين وأشجار وفواكه جيدة[٤٠] . ومنطقة (سيواس Sebastia مشهورة بثياب الصوف التي تحمل منها ، وهي ذات هواء بارد يكثر فيها القطن والقمح [٤١] . وعمورية لها دخل وافر ، ولها رحىً تغل مالاً [٤٢] ، وبها بساتين قليلة ، ولها أعين ونهر [٤٣] . اما قيسارية فبلدة كبيرة ، ذات أشجار وبساتين وفواكه وعيون تدخل اليها [٤٤] . ومدينة قونية لها جبل في جنوبيها ، ينزل منها نهر ويدخل الى المدينة من غربيها ، ولها بساتين من جهة الجبل ، ونهرها يسقى بساتينها ثم تصير عنه بحيرة ومروج ، والفواكه بهـا كثيرة ، وهنـاك المشمش المعروف بقمر الدين [٤٥] الذي يصدر الى العراق والجزيرة وبـلاد الشام ، وينمو في مزارعها القطن والقمح [٤٦] . ومدينة المصيصة على شاطىء نهر جيحان ، وبها بساتين كثيرة يسقيها هذا النهر [٤٧] . ومدينـة ملطية ذات أشجار وفواكه وأنهار ، ويحتف بها جبال كثيرة الجوز وسائر الثمار مباحة لا مالك بها ، ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة[٤٨] . وميـاه بلاد الروم كثـيرة غزيرة [٤٩] ، والارض التي بين القسطنطينية وأنطاكية مأهولة مسكونة لاتنقطع

(٣٩) معجم البلدان (١ / ١٦٦) .
(٤٠) تقويم البلدان (٣٨٥) .
(٤١) بلدان الخلافة الشرقية (١٧٩ ـ ١٨٠) نقلا عن المستوفي .
(٤٢) معجم البلدان (٦ / ٢٢٧) .
(٤٣) تقويم البلدان (٣٨١) .
(٤٤) تقويم البلدان (٣٨٣) .
(٤٥) تقويم البلدان (٣٨٣) .
(٤٦) بلدان الخلافة الشرقية (١٨١) .
(٤٧) معجم البلدان (٨ / ٨٠) .
(٤٨) تقويم البلدان (٣٨٥) .
(٤٩) صورة الارض (١٨١) .

سابلتها من نواحي أنطاكية ورستاقها ، وهو رستاق كثير الخير والمير الى خليج القسطنطينية [٥٠] ، وما يقال عن اقليم أنطاكية يقال عن سائر أقاليم بلاد الروم •

وما ذكر عن خيرات المدن ، يشمل أقاليم تلك المدن أيضاً وقراها ، فهذه البلاد زراعية بالدرجة الاولى ، وأرضها مزروعة أو مروج ومراعٍ للأغنام والماشية والأبقار والخيول والبغال والحمير •

وحاصلات البلاد الزراعية تتلخص في : القمح ، والشعير ، والعدس ، والحمص ، والباقلاء ، والبصل والثوم ، والقطن ، وأنواع الفواكه ، والحمضيات ، وأنواع المخضرات ، والزيتون ، والجوز ، واللوز ، والفستق ، والبندق ، والبلوط ، والكروم •

ويصنع فيها النبيذ ، وتربى بها دودة القز [٥١] ، والاغنام ، والمواشي ، والأبقار ، وتصدر الى بلاد الشام والجزيرة والعراق المواشي والاغنام والابقار والبغال •

أما الصناعة في البلاد ، فموجزها هي : أن المصيصة كانت تعمل بها الفراء التي تحمل الى الآفاق ، وربما بلغ ثمن الفرو ثلاثين ديناراً [٥٢] ، وكانت سيواس مشهورة بثياب الصوف التي تحمل منها [٥٣] ، وكانت تجلب السلع الى طرابزون من القسطنطينية ، وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليوناني ، وثياب الصوف والديباج ، والأكسية الرومية ، وكلها يجلب من الخليج أي

---

(٥٠) صورة الارض (١٨٣) .
(٥١) الجغرافية العمومية (١٨١) .
(٥٢) معجم البلدان (٨ / ٨٠) .
(٥٣) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٨) نقلا عن : صورة الارض لابن حوقل .

البسفور ، وكان في ملقونية يقطع الرحى لتلك البلاد من جبل تلك المدينة[٥٤].

٢ ــ الزراعة :

كانت الارض أسلم أنواع الاستثمار المالي ، لأن الأرض شيء ثابت ، فوضع صاحب رأس المال ماله في الارض، وكذلك فعلت الدولة، لأن الارض كانت أضمن موارد دخلها ، وكان الكيان المالي تبعاً لذلك ، يستند في الدولة البيزنطية على دعامة رئيسة هي ضريبة الارض التي كانت تجبى في كل مكان بشدة وقسوة وبدون لين أو رحمة .

وكانت ضريبة الارض تجمع على شكل جزء من محصـــول الارض ، لتموين الجيش والموظفين المدنيين ، وكان على الولايات أن تقدم من ضرائبها الجرايات التي لم يكن الامبراطور على استعداد لشرائها ، فكان يصدر مرسوم يسمى : (التفويض الالهي) تقدر فيه نفقات الامبراطورية ، ومقدار ما ينبغي على الفرد دفعه في العام التالي .

وقد قسمت الارض الى درجات ، روعى في تقسيمها قدرة تربتها على على الانتاج : فهناك الصحراء التي لا يبللها القطر فتعجز عن الانبات ، وهناك الأرض التي يمكن اســتصلاحها ، وهناك أرض تغذيها الأنهر مباشــرة أو بالنواعير ، وهناك أرض تغمرها المياه فيتعذر النمو على البــذور . وتتوقف درجات الانتاج الزراعي على هذا التصنيف الواضح للارض ، وكانت الدولة تفرض حقوقها على المزارعين بعد أن تصنف وتسجل هذه الاختلافات في نوعية الارض ، وتضع خطاً بيانياً يحده طاقة كل منهم . فمثلا كانت الوحدة المكونة من خمسة أفدنة من الكروم ، تساوي عشرين فداناً من الارض المحروثـة ،

(٥٤) معجم البلدان (٨ / ١٥٢) .

وتساوي خمساً وعشرين ومائتي شجرة من الزيتون اذا كانت الارض تلالا • وكانت هناك ثلاثة أنواع من الارض المزروعة ، جعلت مساحة الواحدة منها عشرين فداناً وأربعين فداناً وستين فدانا ، بالنسبة لانتاجها الزراعي كل سنة •

وهكذا قسمت الأرض المنتجة الى وحدات ضرائبية ، تقدر على الأغلب بناء على شهادة أصحاب الأرض في مدد منظمة بين حين وآخر ، وكانت هذه الضريبة تجبى على الأرض المفلوحة •

ومن الواضح أن نظاما كهذا النظام ، لم يكن ليستطاع تطبيقه بنجاح الا اذا احتفظ بالتعادل بين وحدات الأرض ووحدات العمل التي كانت مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، وكانت المحافظة على هذا التعادل مصدر قلق للمالك والحاكم البيزنطي ، وكان من نتائج هذا القلق الدائم تصميم الحكومة على ربط الفلاح الحر (معمر الأرض Colonus) بالأرض التي يحرثها •

وعلى ذلك ، حين يقرر (التفويض الالهي) حاجة الامبراطورية من المال اللازم لادارتها في السنة المقبلة ، توزع هذه الكمية الضخمة من المال المطلوب على ألوية الامبراطورية ، ويقوم حاكم اللواء بتقسيمها بين الولايات التي ينقسم اليها لواؤه ، ثم يعهد لحاكم الولاية بتوزيع هذا الحمل بين بلديات الولاية ، ويعهد لأعضاء البلديات تقرير ماتدفعه كل من القرى الواقعة في نطاق بلدهم ، وأخيرا يقوم موظفو القرية بتقدير المبلغ الذي يخص كل وحدة ضريبية في نواحيهم •

وكان هناك ميل قوي خلال القرن الرابع للميلاد ، لاستبدال ما يعادل الضريبة العينية من المال بالضريبة العينية ، وانتهى الأمر بتعميم قبض الضريبة مالاً لاعيناً ، وجعل ذلك اجبارياً ، وأصبح (التفويض الالهي) يقرر الضريبة المالية المعادلة لها في نفس الوقت •

بينهم وبينه أشكالاً عديدة كان أشيعها أن يتنازل المزارع لذلك المالك الكبير عن أرضه ، ويصبح مزارعاً عنده •

وقد تميز القرنان الخامس والسادس للميلاد ، بنمو قوة الملاك الكبار ، وأصبح تاريخ الامبراطورية من وجهة الزراعة نزاعاً بين الدولة وهؤلاء الملاك الكبار • وشهد القرن السادس الميلادي جماعات من المواطنين يكونون عصابات مسلحة ، وكانت هذه العصابات تهديداً مباشراً للأمن في الولايات ، وكانت خصومات النبلاء الكبار صوراً للرعب المقيم ، وكانوا بعصاباتهم المنظمة يتحدون السلطات المدنية ، ولكن غزوات الصقالبة من الشمال ، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب ، استطاعت أن تكسر شوكتهم •

وحين استتب النظام ثانية في عهد بيت هرقل ، كانت هناك فرصة للمالك الصغير ، الا أن الملاك الكبار ، بذلوا محاولات لتمكين سلطانهم على المزارعين الصغار •

وبالامكان التأمل في حياة المزارع القروي البيزنطي ، ولكن علينا أن نميز قبل كل شيء بين القرية الحرة والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاك • كان الفلاحون في كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التي يزرعونها ، الا أن الأرض في القرية المملوكة للسيد ، يكون مالكها هو المسئول أمام الدولة عن جميع الضرائب بالنيابة عن عبيده ممن ليس لهم الحق في امتلاك الأرض ، فهي دائماً تحت تصرف سيدهم • أما الأرض في القرية الحرة التي يسكنها المعمرون ، فتخص جماعة القرية أو المزارعين أنفسهم ، وكان هؤلاء أحراراً في امتلاك الأرض أو التصرف بها • واذا دخلنا قرية حرة ، لرأينا أرضها تشتمل على الكروم والبساتين التي كانت تزرع فيها الخضر ، وكذلك الأرض المفلوحة والمراعي • وكانت الكروم والبساتين تحاط بخنادق وسياجات شائكة تشدها

الأوتاد ، وكانت الماشية تتعرض للأذى اذا اقتحمتها • أما الأرض غير المفلوحة فلم تكن مسورة ، وكانت على الاغلب ملكاً للأفراد يستطيع المزارع أن يتصرف بها كما يشاء في حدود ملكية جماعته • وكانت المراعي تكون الأرض غير الصالحة للزراعة ، كالأحراش التي لم تقطع أشجارها ، والأرض الوعرة ، وكانت هذه المراعي تقع في أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها ، وكانت على الأغلب ملكاً للجماعة ، ثم يمتلكها المزارعون قطعة فقطعة ، ثم تنظف وتعد للزراعة ، ثم تقسم على المزارعين ، وبهذا تدخل قطع جديدة في ملكية الأفراد• وقد تكون الأحراش ملكاً للأفراد ، فأذا أراد أحد المزارعين أن يزرع قطعة منها، طلب الى صاحبها أن يأذن له بزراعتها ، ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بغلتها ثلاث سنين تعود بعدها الى صاحبها ، ولكنه اذا زرعها بدون اذن، فقد الحقّ في المطالبة بمحصولها •

وكان رعاة الماشية يسوقرنها في الصباح الى هذه الأحراش العامة لترعى، تصحبهم كلابهم القوية الشرهة ، حتى اذا اصطبغ الأفق بحمرة الشفق عادوا بها الى حظائرها • وكان كل خروف أو ثور يحمل جرساً حول عنقه لئلا يضل ، واذا تجرأ لص وقطع الجرس وتسبب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه ، ألزم بدفع تعويض مقابل تلك الخسارة •

وكانت دعامة ثروة جماعة القرية هو ما تملك من قطعان الماشية بأنواعها ، وكان الراعي يأخذ أجره على عمله ، فيعهد اليه المالك الصغير بثوره الخاص وخروفه فيرعاهما مع القطيع : فاذا شرد حيوان وأحدث ضرراً للأرض المزروعة أو الكروم ، لم يضع على الراعي أجره ، ولكن ألزم بتعويض الخسارة • وكانت الحيوانات المفترسة تحوم حول القرية ، كالذئاب التي كانت تترصد الخراف والحمير لتفترسها ، واذا هاجمت هذه الوحوش القطيع ليلاً ، فالويل كل

الويل للص الذي يتضح أنه سرق كلب الحراسة ، اذ كان يلزم بدفع قيمة الخسارة ، فيدفع تعويضات عن القطيع كله والكلب . وكان يسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقايا الزرع ، الا أنه لم يكن يسمح لرجل أن يطلق ماشيته في أرضه الا اذا فرغ كل جيرانه من حصادهم .

أما مكانة المزارع ، فقد يكون صاحب حصة من الأرض ، ويستطيع في هذه الحالة أن يتصرف بها تصرفاً مطلقاً في حدود دائرة جماعته . وقد يكون مستأجراً للأرض ، وهو في هذه الحالة أحد اثنين : اما مزارع لمزرعة في حالة جيدة ، أو مستأجر لأرض لم تكن تزرع على شريطة أن يعيدها لصاحبها بعد أجل معين ، ففي الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيس لاقامة مايلزم من المنشآت في المزرعة ، ولا تؤجر المزرعة في هذه الحالة الا لمدة قصيرة قد تكون سنة ، فيدفع المزارع للسيد أجراً باهظاً يبلغ نصف المحصول السنوي، وهو ما يقابل في حسابنا أكبر ايجار يمكن دفعه ، وعلى المؤجر في الحالة الثانية أن يقدم رأس المال ، أي أنه في واقع الأمر يقوم بانشاء مزرعة جديدة ، ويكون استئجاره للأرض على هذا اما للأبد أو لعدد كبير من السنين ، ويدفع عادة أجراً يساوي عشر المحصول . وربما كان يلزم بمقتضى شروط أخرى ، أن يؤدي لصاحب الأرض بعض الخدمات ، أو أن يؤدي اليه كميات من المحصول.

وكانت روابط القرابة في الجماعات القروية متينة جداً بطبيعتها ، واذا وجدنا فلاحين مشتركين في ملكية أرض ، فلابد أن نجد أنهما متصاهران في نفس الوقت غالباً . فاذا أراد أحدهما أن يبيع نصيبه كله كان لقريبه حق الشفعة اذا دفع ثمناً مساوياً لما يدفعه أي غريب عنهما ، وحتى اذا لم يكن المتجاورون أقرباء وكانوا شركاء ، تمتعوا بحق مشابه .

لكن حق المزارع الحر في التصرف لم يكن يخلو من خطر ، فقد كان

المالك الكبير دائم السعي لتوسيع ملكه ، فكان من السهل عليه أن يضطر المالك الصغير الحر الى التخلي عن أرضه لجاره القوي • وحاول التشريع الاصلاحي في القرن العاشر الميلادي أن يحرم على المالك الكبير حيازة أرض علاوة على أملاكه الأخرى في حدود أرض القرية ، سواء كان ذلك عن طريق الهبة ، أم لاعتبار آخر مهم ، وسواء أكان ذلك المالك سيداً مدنياً أم هيئة كنسية • ولكن هذا المنع لم يكن ليعيش طويلاً في هيئته هذه ، ولهذا عدلت القوانين ، وأخذ بالقاعدة التي تقول بأن انتقال الملكية لايصح الا بين ناس من نفس الطبقة الاجتماعية ، الفقير ينقل للفقير ، والغني للغني ، أي كل لمن هو من طبقته في كل حالة • وتداعت القاعدة القانونية لنقل الملكية نقلا مطلقا من كل قيد أمام ماكانت السياسة تفرضه على رجال الدولة من حماية الضعيف ، وظل مركز المالك الكبير القوي بالنسبة للمزارع الصغير الضعيف ، في الامبراطورية البيزنطية الشرقية وسلامته يعتبران القاعدة التي يجب أن تنحني أمامها سائر النظريات القانونية ، وبقي المجتمع مقسماً الى طبقات بعضها فوق بعض ، وكان ذلك دعامة بناء المجتمع في القرن الرابع الميلادي ، كما كان دعامته في القرن العاشر الميلادي أيضاً [٥٥] •

٣ ـ التجارة والصناعة :

كانت التجارة مع الشرق تحتل المكان الأول من الأهمية بالنسبة لايطاليا في عصور الامبراطورية الاولى ، فقد كانت تستورد من الشرق أسباب الترف التي كانت قد أصبحت من ضروريات الغرب • وكانت التجارة مع الشرق

---

(٥٥) مقتبس من الفصل السادس ، بعنوان : ملكية الارض والضرائب ، كتاب : الامبراطورية البيزنطية ـ نورمان بينز ـ تعريف الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ • ص (١٢٩ ـ ١٤٦) •

لاتزال تستنزف معظم نشاط تجار الروم ، بعد أن نقلت العاصمة من رومة الى القسطنطينية • وكانت الدولة بدورها تبدي اهتماما بالتجارة ، اذ أن كنوز الهند والصين التي كانت الدولة تغدقها على أمراء القبائل المتبربرة في الغرب ، كانت كافية للابقاء على سيادتها الامبراطورية حتى في النواحي التي لم تكن جيوشها قادرة على السيطرة عليها •

وكانت هناك ثلاثة طرق يمكن للمنتجات الشرقية أن تصل عن سبيلها من الشرق الأقصى الى التاجر الرومي : كان أقصرها يعبر واحات بلاد الصغد (سمرقند وبخارى) مخترقاً فارس ، ومن ثم الى حدود الامبراطورية البيزنطية• والثاني يخترق المحيط الهندي الى البحر الأحمر ، والثالث وهو طريق أكثر صعوبة ، يمتد من وسط آسيا الى بحر الخزر ، ومن ثم الى البحر الأسود بعيداً عن دولة فارس • وقد ازداد الاقبال على الحرير بصورة مضطردة مع زيادة أسباب الترف ، وأصبح ارتداء الثياب الحريرية المصنوعة من الحرير الخالص في هذا العصر مألوفاً في الحياة البيتية ، وأخذت الكنيسة أيضاً ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة للألبسة الكهنوتية والستر والأغطية ، ولتزيين المذابح ــ بعد أن كانت أول الأمر ترفض استخدام الحرير للأغراض الدينية ، بينما احتكرت الدولة صنع أشكال معينة من ثياب الحرير كانت تلبس في مراسم البلاط • وكانت الدولة على كل حال تعتمد على القوافل التي تقطع فارس في امدادها بهذه المادة الجديدة • وقد لحق بتجارة الروم ضرر كبير من جراء عرقلة المواصلات ورفع ثمن المادة الحريرية الخام ، وكنتيجة لتحميل البضائع المستوردة ضرائب كمركية باهظة قبل أن تجتاز الحدود الى بلاد الروم ، وبسبب الحروب البيزنطية الفارسية •

ومنذ القرن الخامس الميلادي ، أخذت الدولة تتدخل في التجارة ،

فقصرت السماح بشراء الحرير على وكلاء الدولة في الحدود ، لكي لايكـون لها منافس ، ومن ثم يباع الى الأفراد بالسعر الجاري بعدئذ •

وجلبت شرانق دود القز الى بلاد الروم في أواسـط القرن السـادس الميلادي ، وبدأت أشجار التوت تزرع ، وأخذت الامبراطورية البيزنطية تنتج ما يلزمها من الحرير ، وظلت الدولة تحافظ على احتكارها لصناعة الحريـر باهتمام ، وتستخدم ألوف العمال في ذلك •

وفي خلال النصف الأخير من القرن السادس الميلادي فتح طريق التجارة الشمالي بعد انقطاعه ، وكانت موانىء القرم تتاجر مع الهون وجنوب روسيا ، فتجلب الجواهر وتحف الصناعة الرومية الفاخرة وتستبدل بها الجلود والعبيد من الشمال ، بينما كان أهل قبائل القوقاز يبيعون الجلد والفرو للحصول على القمح والملح والخمر •

وكان طريق التجارة الجنوبي أهم من ذلك بكثير ، حيث تمر التجـارة الهندية والصينية والحبشية بالبحر الأحمر ، وكانت سيلان أهم مركز تجاري في حينه ، يلتقي على أرضها تجار الشرقين الأقصى والأدنى وتجـار الهنـد والحبشة والصين • كما كان للروم تجارة مع الروس ، واستطاع الروس دخول القسطنطينية على شريطة أن يكون دخولهم من بوابة واحدة غير مسلحين ، وألا يدخل أكثر من خمسين منهم في المرة الواحدة ، وهناك كانوا يستطيعون قضاء الصيف على ألا يطول مكثهم عن ذلك • وكانت الحكومة البيزنطيـة تهيىء المسكن والطعام والحمامات للتجار الروس طول مدة زيارتهم دون مقابل، وكانت تختص رسل أمير (كييف) الروسية التجاريين بمنح خاصة ، فلم تكن تحصل من التجار الروس على ضرائب كمركية • وكانت التجارة جميعها تقريباً تجري على أساس المقايضة ، فكان الفراء الروسي والشمع والعبيد تقـايض

بالخمور اليونانية والفواكه والأقمشة الحريرية • وكانت الدولة البيزنطية تجهز التجار عند رجوعهم بالمؤن اللازمة لهم أثناء رحلتهم ، كما كانت تمنحهم أدوات لسفنهم كالمراسي والحبال الضخمة والصغيرة والأشرعة ، مما كانوا بحاجة اليها لاصلاح سفنهم وادامتها •

وفي القرن العاشر الميلادي ، أصدرت الدولة البيزنطية مجموعة القوانين لنقابات القسطنطينية التجارية • وأبرز مواد تلك القوانين ، تلك التي تنص على منح الحماية للمستهلك والمنتج على السواء ، فكانت الدولة تحرم على التجار جمع البضائع من السوق بقصد رفع الثمن والانتفاع من ذلك ، وكذلك كان من المحرم شراء البضائع جملة والكسب من وراء بيعها تفاريق ، فكان يجب ــ في حدود الامكان ــ أن يشرى كل شيء ويباع دون تدخل الوسطاء• ووضعت مادة تحفظ للعامل أجره الذي يستحقه ، وتكبح جشع الرأسماليين ، وتمنع احتكار أقلية غنية لصناعة ما • وكان المشتغلون بكل حرفة من الحرف يجتمعون في نقابة خاصة بهم ، وكان الجمع بين عضوية نقابتين في وقت واحد محرماً • وفي الحالات التي تمس مصلحة الدولة ، كحالة التموين مثلاً ، نجد أن القواعد التي كان أعضاء النقابة الخاصة بذلك الموضوع خاضعين لها ، مفصلة تفصيلاً خاصاً ، فكانت الحكومة تقرر الثمن التي تشترى به المواد الخام وسعر بيع المأكولات ، ويظهر أنه كان في استطاعة الدولة أن تطلب بعض الخدمات من النقابات دون مقابل ، وربما كان هذا لتقليد يوناني قديم ، كانت الدولة تفرض بموجبه على مواطنيها الأغنياء أن يتطوعوا للقيام بخدمات لها • وربما كان تعيين رؤساء النقابات يتوقف في كل حالة على موافقة محافظ المدينة ، بينما كانت الدولة تشترط لكي تسهل عليها مراقبة كل المبيعات أن تكون العمليات علنية ، وكان من المحتم أن تتم هذه العمليات في أماكن معينة محددة لكل حرفة • وكان للنقابة وحدها أن تشتري المواد ثم توزعها على

أعضائها ، وكانت تلك الصفقات التي يقوم بها موظفو النقابات لاتتم الا في مواضع معينة • وكان انتهاك حرمة هذه النظم يعرض مرتكبها للعقاب بالفصل من النقابة ومصادرة أملاكه ، أو بتغريمه مالاً ، أو بجلده وقص شعر رأسه ولحيته ، واذا كانت الحالة أكثر خطورة ينفى أو تقطع يده • وكان على التجار الأجانب حال وصولهم العاصمة ، أن يخطروا السلطات الحكومية ، ولم يكن باستطاعتهم أن يمكثوا في العاصمة أكثر من ثلاثة أشهر الا بموجب اتفاق خاص • واذا انتهت هذه المدة دون أن يبيعوا بضائعهم ، قامت الدولة بوضع الترتيبات لبيعها • وكان كل ما يشترونه من البلدة نفسها خاضعاً لرقابة دقيقة، ولم يكن يسمح لهم أن يحملوا معهم شيئاً من الأمتعة التي كان تصديرها محرماً كالمواد الحريرية المتميزة • وكانت الحكومة تكشف عن كل البضائع كشفاً دقيقاً ، فاذا أبيح بعدئذ تصدير بضاعة ما ، طبعت بخاتم الدولة •

غير أن التجارة البيزنطية اضمحلت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، لأن الدولة اضطرت الى أن تمنح مدينة البندقية امتيازات شديدة الخطر ، في مقابل الحصول على معاونتها ، وذلك بعد أن أخفقت في الاحتفاظ بأسطولها • ولاشك في أن هناك أسباباً عدة لاضمحلال التجارة البيزنطية ، وحسبنا أن نذكر سبباً يظهر أنه قد لعب دوراً مهماً ، وهو : لم يكن أغنياء الروم على استعداد لأن يجازفوا برؤوس أموالهم في تجارة تذهب الى ما وراء البحار ، بل كانوا يفضلون استثمار أموالهم في الأرض ، لأن الاخطار البحرية كانت في الواقع عظيمة : أخطار شبوب النار في السفن ، كما كان هناك ناس كثيرون يتربصون بالسفن على الشواطىء لأغراقها ، وكانت هناك أخطار لصوص البر وقرصان البحر • وكانت السفن تتعرض لما يسمى بالقصاص ، وذلك أن دولة من الدول تمنح لرعاياها ، الذين أنزل بهم حيف من دولة أخرى، الحق في أن ينتقموا لأنفسهم بمهاجمة كل سفينة تابعة للدولة التي اعتدى

أهلها على رعاياها • وهناك خطر الوقوع في يد القرصان المسيحيين المتدينين ، الذين يكسبون عن هذا الطريق المال الذي يعينهم على الخروج للحج الى بيت المقدس •

ومن هنا ، كانت السفن تسير جماعات في قوافل لتتبادل المساعدة ، وكانت تحمل رجالاً مسلحين للدفاع عنها •

لهذا لم يكن أغنياء الروم مستعدين للمجازفة بأموالهم في مخاطر التجارة البحرية ، فكانوا يستغلون أموالهم في شراء الأرض وتثميرها ، فاضمحلت تجارة الروم ، وتفوقت عليها تجارة البندقية فواقاً بعيداً (٥٦) •

أما خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، فكان الصانع منهمكاً في أشغاله ميسورا ، فدولة الروم لم تعرف عهداً في تاريخها زهت فيه الصناعة والتجارة زهوهما في هذين القرنين • ولم تكن القسطنطينية في أي وقت من أوقاتها أكثر نتاجاً وأوفر ربحاً ، وأصبحت بوفرة مالها وحذق صناعها أم المال والذهب والفن والعجائب للعالم أجمع ، وقصدها أمهر الصناع وأطمع التجار من سواحل البلطيق حتى الأسود والأدرياتيكي ، ومن ارمينية والقوقاز حتى اسبانيا والبرتغال ، وتمنى بذخها وثروتها أمراء الاقطاع شرقاً وغرباً •

فعلاوة على البقالين واللحامين والخبازين والبنائين والنحاتين والرخامين والنجارين والحدادين والخياطين والرسامين ، كان هناك طبقة من التجار والصناع يعنون بنسج الحرير وصبغه وتزيينه بالرسوم وبالفضة والذهب ، وهؤلاء أدهشوا العالم بدقة صنعهم ومهارتهم ، فجمعوا أموالا طائلة ، وجعلوا من القسطنطينية قبلة أنظار أهل البذخ والترف في الشرق والغرب معاً • كما

---

(٥٦) مقتبس من الفصل الثالث عشر : التجارة من كتاب الامبراطورية البيزنطية •

أن صناعة الروائح العطرية لم تقل شأناً عن صناعة الحرير .

وشجعت الحكومة هذه الصناعات وأخفت أسرارها ، ونظمت أمورها ، ثم حمت هذه الصناعات من مزاحمة الاجانب، فحددت الاستيراد أو منعته(٥٧).

لقد كانت تجارة الروم وصناعتهم في تقدم تدريجي حتى نهاية القرن العاشر الميلادي ، حيث بلغت أوج تقدمها ، ثم اضمحلت بعد ذلك خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلادي ، فتأخرت وتقدم عليها غيرها من الأمم ، كما ذكرنا ذلك .

تاريخ بلاد الروم قبل الفتح الاسلامي

وفي ايامه الأولى

١ ـ مولد الامبراطورية البيزنطية :

الروم عند العرب قبل الاسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون، والبيزنطيون عند أنفسهم روم ، أي رومان . وعاصمتهم : (رومة الجديدة) أي القسطنطينية ، ولايزال الروم الأرثوذكس يدعون القسطنطينية مركز البطريرك المسكوني حتى يومنا هذا : (رومة الجديدة) .

واللفظ : روم في نقوش الصفا اسم بلاد واسم شعب ، وورد اسم الروم في القرآن الكريم في : (الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . في أدنَى الأرْضِ وهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)(٥٨) . في آية واحدة ، مرة واحدة فقط ،

(٥٧) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ الدكتور أسد رستم ـ ص (٢ / ٩٦ ـ ٩٧) ـ بيروت ـ ١٩٥٦ .
(٥٨) الآيات الكريمة من سورة الروم (٣٠ : ١ ـ ٣) .

وحملت السورة التي جاءت فيها تلك الآية الكريمة اسم : سورة الروم ، وهي من السور المكية [٥٩] .

وكانت رومة ، عاصمة الروم الاولى ، ولكنها تقهقرت لأسباب كثيرة نذكر أهمها بايجاز شديد .

فقد كان من جراء التوسع العسكري الروماني ، أن تعاظم كسب قادة الجيش وضباطه وحكام الولايات وكبار الموظفين ، فعادوا الى أوطانهم متمتعين بجميع ضروب التنعم والترف ، مشبعين بغطرسة من ذاق لذة السلطة المطلقة ، بعيداً عن وازع الشريعة الرومانية وقيود النظم الجمهورية .

وتهافت الأغنياء والكبراء على اقتناء المزارع الواسعة المترامية الأطراف، وحشروا فيها ما ملكوا من أرقاء . ولم يقو المزارع الصغير على مزاحمة جاره المزارع الكبير ، فضم أرضه الصغيرة الى أرض جاره الكبيرة ، وربط نفسه بتلك الارض الى الأبد . ومع أن هذا النظام الاقطاعي لم يجعل من المزارع الصغير الذي لا أرض له رقيقاً لسيده ، فانه فقد حريته في أن يذهب حيث يشاء . وكانت حياة الرقيق في هذه المزارع الكبيرة شاقة تعسة ، وكان يكوى بمياسم ليبقى الوسم علامة يعرف بها عند الفرار ، فنفر الرقيق من صحبة سيده، وانقبضت نفسه عن العمل له باخلاص وأمانة . وتضاءلت على الأيام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب ، وبار قسم من المزارع وترك لينبت فيه العشب والدغل . واعتمدت رومة على قمح مصر وحبوبها لتغذية أبنائها وأبناء المدن الايطالية الاخرى ، وقلت الأيدي العاملة لهجرة الفلاحين الى المدن ، فبارت الارض لهذا السبب أيضا ، وضعف الانتاج الزراعي .

---

(٥٩) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٣٢٩) — محمد فؤاد عبدالباقي — القاهرة — ١٣٧٨ هـ .

وكان هناك عداء مزمن بين الفقراء والأغنياء • فثار الأرقاء أكثر من مرة على سادتهم ، ونفر المزارعون الصغار في ايطالية وغـيرها وأحرقوا المزارع الكبيرة التي أنشأها كبار الملاكين • بيد أن الأرقاء لم ينظموا صفوفهم • ولم يكن لديهم في وقت من الأوقات برنامج سياسي معين يسعون لتحقيقه ، وجل ما بلغوا اليه أنهم كرهوا أسيادهم وثاروا في وجوههم وتمنوا زوال نعمتهم ، وذلك بعمليات متفرقة في غالب الأحيان •

وأدى توسع رومة في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، الى توسع مماثل في أفق أبنائها العاملين في حقلي الصناعة والتجارة ، فخرجوا من ايطالية الى الولايات الجديدة يوظفون أموالهم فيها ، وقام من أبناء هــذه الولايات نفسها ، ولاسيما الشرقية منها ، من شاطر هؤلاء عملهم وانتاجهم ، فنشـطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات • ومع الزمن ، فقدت ايطالية سيطرتها الاقتصادية التي كسبتها في حروب التوسع المتتالية ، وقـل انتاجها الصناعي وتدنى ، فأصبح في مستهل القرن الثالث الميلادي قليلا ، فقل الدخل عموماً وقل دخل الدولة ، لتأخر الصنـاعة والتجـارة وانحسـار دخلها ومواردها وارداتها •

وكانت الخدمة العسكرية في أوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين ، ولما جاء يوليوس قيصر منح حقوق المواطن الروماني بعض وجوه الولايات وأعيانها ، وقضت ظروف الحرب والاستيلاء والتوسع بتكبير الجيش، فجندت رومة أبناء الولايات في وحدات مساعدة ، ثم تساهلت رومة مع كل من لمست فيه استعداداً لتفهمها والامتزاج بأبنائها ومنحته هذا الحق الكبير • وفي سنة (٢١٢م) أبيح هذا الحق لجميع سـكان الامبراطورية ، فأصـبح الجيش مؤلفاً من جميع عناصر حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما أدى الى انحطاط الجيش الذي أصبح ضخماً في كميته هزيلا في كيفيته •

كما أن التوسع العسكري الكبير ، أدى الى تغيير آخر في الجيش ، فالحدود الشاسعة الطويلة ، والاعمال الحربية المتتابعة ، قضت بتطويل مدة الخدمة العسكرية • والانحطاط الاقتصادي اضطر الحكومة الرومانية الى أن تقطع جنود الحدود أرضا يحرثونها ، وأن تجيز لهم أن يتأهلوا ويقيموا في أكواخهم قرب الحدود ، فقضى الجنود حياتهم بأكملها في خدمة الجيش ، وأصبحوا طائفة عسكرية تعيش لنفسها لا جيشاً من الشعب يقوم بخدمة الدولة •

كما عجل كثيراً في انحطاط الجيش ، أن الجند أصبحوا يختارون من يرضون عنه ليصبح امبراطوراً ، ويعزلون من لا يرضون عنه ويعينوا مكانه غيره ، كما أمسى الامبراطور نفسه قليل المهابة والاحترام ، وهذا أدى الى انهيار الضبط والربط في الجيش ، ولا قيمة لجيش لا يتحلى بالضبط العالي والربط المتين •

وكان الامبراطور في بدء الامر وجيهاً رومانياً كبيراً خول سلطة عسكرية واسعة في ظروف حربية قاهرة ، وكانت هذه السلطة أو القيادة تنتهي بانتهاء الحرب • ثم جاء الامبراطورية بطولها وعرضها وتعددت مشاكلها ، فوكلت رومة القيادة الى رجل واحد طوال عمره • وبقيت سيادة الدولة الرومانية تظل هذا الامبراطور الفرد ومنها يستمد سلطته ، وبقى هو ممثل الجمهورية الاوحد ، واستحق لقب : (أوغوسطوس) أي قديس لأنه كان في نظر الرومانيين رمز آلهة رومة الحي • وانحصرت السلطة التشريعية بيد مجلس الشيوخ ، وكذلك ادارة الدولة وفرض الضرائب وجبايتها ، ولما كانت القوة العسكرية بيد الامبراطور ، كان من الطبيعي جداً أن يتطاول على حقوق مجلس الشيوخ في نطاق سلطته ، وأن تتدرج الدولة الرومانية الجمهورية في سلم الملكية •

وتبين أن الجيش بعد أن انفصل عن الشعب الروماني وأصبح خليطاً من كل من هب ودب ، بقي يمارس سلطة هائلة في انتقاء الامبراطور بالمشاركة مع مجلس الشيوخ ، ولكن هذه السلطة أصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش .

وتساقط الاباطرة واحداً بعد آخر قتلا بأيدي جنودهم أو بأيدي جنود أعدائهم ، وتكاثرت الحروب على الروم ، وتصاعدت الافكار الفلسفية التي فرقت الشعب دون جدوى .

وظهرت المسيحية ، فعانت ما عانت من اضطهاد الروم ، ويشير المؤرخون عادة الى عشرة اضطهادات بين سنة أربع وستين للميلاد الى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الميلادية [٦٠] ، حيث كانت سنة البراءة التي تنفس فيها المسيحيون الصعداء .

فقد تنصر قسطنطين الكبير (٢٨٠ ــ ٣٣٧ م) سنة (٣١٢م) ، فظهرت رسوم مسيحية على مسكوكاته ، وجعل شارة الصليب على رايته ، واهتم بالنصارى واعتنى بهم ، وحرم التبشير باليهودية والدعاية لها سنة (٣١٥م) ، وأصبح حبر الأمة الأعظم يرعى جميع الاديان وبخاصة المسيحية ، ولكنه لا يكره أحداً على أن يذهب مذهبه ، ولكل من رعاياه أن يتبع الرأي الذي يراه .

وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكرية ببقائه في الشرق أكثر من الغرب ، فعزم على انشاء عاصمة في الشرق تسهل الدفاع عن الولايات الغربية والشرقية ، ووقع اختياره على بيزنطة ، ولا نعلم بالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديدة ، ولكننا نعلم أن تدشينها جرى في الحادي عشر من أيار سنة (٣٣٠م) ، وسماها : رومة الجديدة ، ولكن الشعب أطلق عليها

---

(٦٠) الروم (٩ ــ ٣٣) ، حول التفاصيل .

اسم : القسطنطينية [٦١] .

٢ ـ الحياة الاجتماعية :

كانت الهوايات والنزعات في الامبراطورية البيزنطية الشرقية دينية ، وكانت الامور من سياسية واجتماعية تلبس ثوباً دينياً .

لقد كان البيزنطي يعيش في عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفية ، فكانت عطلاته أعياداً دينية ، وألعابه في الملعب تستهل بالتراتيل الدينية ، وعقوده التجارية توسم عليها علامة الصليب أو تحتوي على ابتهال للثالوث المقدس . واذا أراد أن يستخير الله لم يفعل ذلك الا عن طريق النساك أو عن طريق الرؤى الذي يتمثل فيها القديسون الأموات . وكان يتخذ من التمائم المقدسة تعاويذ له ، ويرى في الغبار المحتوي على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجح دواء عنده . وكانت حروبه صليبية مقدسة وامبراطوره خليفة لله في أرضه ، وكل حادثة مروعة في الطبيعة فهي اما نذير أو بشير ليثنيه أو يحفزه .

وكانت النتيجة لهذه النظرة أن أصبح العلم متهماً ، فقد وجد أحد أطباء العاصمة أن نسبة الوفيات عالية في الطبقة العاملة الذين يعيشون في مساكن تحت الارض ، وكان ذلك في طاعون القرن الرابع الميلادي ، فأعلن للملأ أن ذلك سببه قلة الهواء النقي ، فاتهم الطبيب بالكفر ولما أصيب الطبيب بالمرض وقضى نحبه ، انتصر رجال الدين المسيحي ، واعتقد الناس أن موته كان عقاباً له على زندقته .

والحق أن البيزنطي تحول بالسليقة الى القديس بعد أن عاين عجز

---

(٦١) الروم (٥١ ـ ٦٤) ، حول التفاصيل .

الطبيب ، وبعد أن كان الناس ينامون في الهياكل الوثنية ليبرأوا من أسقامهم، أخذ المسيحي حينئذٍ يتردد الى الكنيسة أو الى مقام أحد الشهداء ، وتولى الملاك ميكائيل مهمة شفاء الناس التي كان يتولاها الاله القـديم في المعبد ، وأخذ القديس المسيحي يحل محل الاله الوثنى الـذي كان يدرأ الأذى عن المدينـة •

وهذا الشعور المستمر بوجود القوى الخفية ، هو الاطار الـذي كان يعيش فيه الانسان البيزنطي ، ذلك أن ميله الى اللاهوت كان يظهر في كبار الأمور وصغارها ، وكان العالم المحجوب عن الأبصار يدور معـه في الآجلة والعاجلة •

ولم يكن ساكن العاصمة يعيش في جو ديني حسب ، ولكنه كان يعيش في جو خطر ، ولاشك في أن أعصابه كانت في بعض القرون تحيا في توتـر مستمر ، لأن مدينته كانت تقاسي حصاراً بعد حصار • ومما لاجدال فيه أن الامبراطورية الرومانية في الغرب سقطت لأن أعداءها فاقوا جيوشها عدداً ، ولو تيسر للمدافعين يومئذ البارود والمدفع لباءت هجمات أعدائهم بالاخفاق ، لأن ذلك السلاح كان يكفي ليسد العجز العددي عند الرومان • وكانت أسوار القسطنطينية تمثل للشرق بمعنى من المعاني المدفع والبارود اللذين حرمتهمـا الامبراطورية الغربية ، فآل أمرها الى الزوال • ولكن لابد للأسوار من رجال، واذا كان المدافعون عنها فئة قليلة ، فلابد من أن تلعب الخدعة والحنكة والخيانة الصراع ــ اذا دعت الحاجة اليها ــ دورها بالنيابة عنهم • وهكذا مال الخلق البيزنطي الى ألوان من الدهاء لاتعرف المبادىء ولا حدود الأخلاق ، تلـك الخصال التي نستطيع أن نلمسها حتى في الشخصيات والناس عامة • ونستطيع أن نقرر من غير حرج ، أن النفعية الذاتية التي انغرست في النفوس دون شك ، كانت شائعة في الروم الشرقيين رفيعهم ووضيعهم •

ذلك أن التوتر الدائم له رد فعل ، هو الافراط في التراخي •

ومن العبث أن ننكر ، أن العنف والوحشية والجور ، وهي خصال كانت متأصلة في نفوس البيزنطيين ، كانت تلعب دوراً كبيراً ، فقد كان جمهور العاصمة ينظر باستخفاف الى قيم الحياة البشرية نتيجة لسخطه على الساسة الذين أبغضهم بغضاً مريراً ، ونتيجة للسهولة التي كان التحريق والقتل يقترفان بها أمام أعينهم كلما وقع شغب وهياج • وزادت الحكومة سوءً ، فضربت للناس أسوأ المثل في هذه الناحية ، بما كانت تطبقه من معاقبة المجرمين بتوقيع عقوبات تقوم على قطع الجوارح ، كقطع الأيدي ، وجدع الأنوف ، وسمل الأعين •

وعلى الرغم من الخطر المحدق بالعاصمة دوماً ، كان البيزنطي يتطلب لنفسه تسلية ومرحاً ، وكانت مراكز الحياة الثلاثة في العاصمة هي : القصر ، وميدان السباق ، والكنيسة • فاذا أغلقت الحمامات وأقفلت أبواب ميدان السباق ، فقدت الحياة عند البيزنطي بهجتها ، وأصبحت تافهة ضحلة لا غناء فيها •

وكان المتسابقون يعيشون في عالم تسوده الخرافات الوثنية ، حتى لقد كانوا يحاولون بالتعاويذ السحرية والتمائم أن يقيدوا منافسيهم برقى حتى يفوزوا دونهم ، وكثيراً ماكان السائقون يفتشون قبل بدء السباق حتى لاتكون معهم الخرزة السحرية التي تكفل لهم الفوز دون استحقاق ، مع كثير من الشعوذات الأخرى •

وكان ميدان السباق مكاناً تعرض فيه الانتصارات الامبراطورية ، حيث كان الأباطرة يضعون الحذاء الأرجواني ــ رمز السيادة ــ على رؤوس المنافسين المقهورين أو الأعداء المغلوبين • كما كان أيضاً محكمة جنايات ،

يتخذ فيها القضاة مجالسهم بانتظام • حتى ان الأمبراطور اذا اقتنع بارتكاب أحد الحكام جريمة من الجرائم ، قضى على المجرم أن يحرق حياً على مرأى من الرعية • وكذلك كان الملعب مسرحاً لتلك المواكب التي اعتاد الناس أن يروا فيها رجلاً من رجال البلاط أو رجال الدين المغضوب عليهم ، يسار به بين صفوف الشعب الساخر ، وربما أركب حماراً وجعل وجهه الى ذيله • كذلك كان الملعب متحفاً فيه روائع فن النحت القديم ، حيث كان رجال الكهنوت في الكنيسة المسيحية ، وقد رضوا عما يجري في الملعب كان الملعب مرآة للعالم البيزنطي •

وكان للرجل البيزنطي بطلان هما : الفائز في سباق العربات ، والقديس المتقشف • أما الأول ، فكان تنصب الصور والتماثيل اجلالاً له في كل مكان، وكان سائق عجلة السباق يمنح امتيازات خاصة ، فكان في نجوة من كل عقاب بدني ، واليه كان رجال الأدب يرفعون أحسن مقطوعاتهم •

أما المتقشف الزاهد ، فكان الحجاج يأتون اليه من كل صوب ، يحدوهم شوق لاهف ليروا القديس على عموده ، وينالوا بركته ، وليحملوا معهم تمثالاً صغيراً من تماثيل الرجل الطاهر ، التي كانت تصنع لتباع بالجملة لكل من يطلبها من الاتقياء • وهذا التمثال مع القنديل المعلق به ، كان يحمي دكان المتبرك وبيته من كل أذى ، ويعطيه ثقة جديدة وشعوراً متجدداً بالاطمئنان وسط أخطار الحياة •

وكان هناك وحدة في الأسرة واخلاص متبادل بين أفرادها • والمرأة ربة البيت ، ولها نفوذها الملموس في مجال عملها على زوجها وأطفالها • وكانت البنت تتزوج في سن مبكرة ، وكان اختيار الزوج مما تعنى به الأسرة، وقلما كانت البنت ترى زوجها قبل الزواج • على أن المرأة البيزنطية لم تكن

سجينة بيتها على أية حال ، على الرغم من أن الحرائر المحصنات لم يكن يرتدن دور التمثيل • وكانت نظرية الروم عن السيادة لاترى غضاضة في زواج الأمير بأمرأة لايجري في عروقها دم الملوك ، بل كثيراً ماكان النسل الامبراطوري يتقوى باختيار عروس من الطبقات المتوسطة ، حتى كان الامبراطور أحياناً ينتخب شريكة حياته من بين سرب العذارى الجميلات اللواتي انتقين من الولايات لتلك الغاية (٦٢) •

٣ ـ السيادة البيزنطيـة :

جمعت السلطة النافذة داخل حدود الامبراطورية البيزنطية في شخص الامبراطور ، فكان هو مصدرها الأوحد • ولكن ظل حق الامبراطور في العرش يخضع للانتخاب طيلة تاريخ الامبراطورية ، فكان مجلس الشيوخ والجيش ينتخبان الحاكم : الجيش يمارس حقوقه الوراثية في تنصيب الملوك، والشعب يؤيد ذلك ، فكان باستطاعة مجلس الشيوخ أو الجيش أن يتقدم أحدهما فيعين مرشحاً ، ثم يزكيه الطرف الآخر • أي أن انتخاب الامبراطور كان يمر بالأدوار التالية : (١) ينادي مجلس الشيوخ أو الجيش بوضع المرشح «في وضع دستوري يجعله في مكان الامبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعدئذ تثبيت ذلك أو الغاؤه »• (٢) أن يوافق الطرف الآخر على ذلك، لأنه يملك الحق ذاته في الترشيح • (٣) التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الروماني الذي يجتمع عادة في ميدان السباق (٦٣) • (٤) تتويجه

(٦٢) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (١٦ ـ ٣٩) .

(٦٣) كان تتويج الاباطرة منذ القرن السابع يجرى فيالكنيسة الكبرى ، ويحضره اعضاء مجلس الشيوخ وممثلون عن الجيش والشعب الذي يهتف للامبراطور داخل الكنيسة وخارجها ، وكان التتويج قبل القرن السابع يجرى في ميدان السباق خارج المدينة .

بالتاج على يد البطريرك الأعلى قائماً بتمثيل المنتخبين لا الكنيسة ... وقد جرت العادة بذلك وان لم يكن شرطاً أساسياً .

تلك هي الاجراءات التي ينص عليها التقليد الدستوري في منح السلطان لأحد من الناس ، لكنها لاتكفل له سوى لقب بشرى . بيد أن عرش الامبراطور كان يقوم على أسس أكثر رسوخاً ، فالامبراطور صفي الاله ، وقد وقع عليه الاختيار منذ ولادته لتحقيق ارادة السماء ، واذاً فالمرشح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التي اكتسب بها هذا النصر ، فنجاحه هو المسوغ الوحيد ، وهذا النجاح يطمس صفحة ماضيه ، وهو الأساس الذي يلزم الناس بطاعته .

واذاً فمن الواضح أن الامبراطور ملك كاهن ، ومنصبه كهانة ملكية ، وما الامبراطور الا أحد رجال الدين ، فهو يستطيع أن يدخل المعبد المقدس ، ويقترب من المذبح حيث لايسمح لأحد من العلمانيين (غير رجال الدين) بالمرور . وفي استطاعته أن يقبل ستار المذبح ، وأن يتناول بيده الخبز المقدس. وعهدت له العناية الالهية ــ كما عهدت لبطرس من قبل ــ في رعاية أتباع السيد المسيح ، ولكن يظهر هذا الجانب من كهانة الامبراطور بوضوح أكثر ، أضيف منذ القرن التاسع الميلادي ــ على ما يظن ــ عمل آخر رمزي في حفل التتويج ، الا وهو أن يقوم البطريرك بمسح الامبراطور بالزيت المقدس ، ولم يكن يعبر بذلك عن ارادة الدولة ، بل عن المشيئة الالهية .

غير أن النظرية (الالهية) في أصل الملكية كانت تحمل في طياتها نتيجة أبعد مدى ، فمصدر الرفعة هو الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، واذاً فالعرش الامبراطوري مباح للجميع ، فلاحهم ونبيلهم ، جاهلهم وعالمهم ، على السواء ، غير أنه اشترط في الامبراطور أن يكون مسيحياً ، وأضيف بعد ذلك أن يكون

مسيحياً أرثوذكسياً ، وفيما عدا ذلك يمكن لأي واحد من الناس أن يقع عليه اختيار الله عظيماً كان أم حقيراً غنياً أم فقيراً .

بيد أنه لم يكن هناك من سبيل دستوري لاسقاط الامبراطور بعد انتخابه سوى ثورة ناجحة ، وهنا أيضا لايحول اختيار العناية الالهية له ، دون أن يعتبر مجرد غاصب في حالة اخفاقه ، واذاً فالثورة تصبح مشروعة ، بل وجزء من الدستور المعمول به .

بيد أن اختيار الأباطرة بطريق الانتخاب وحده ، لم يكن ليضمن للناس سير الأمور سيراً حسناً ، مادام اغتصاب العرش مباحاً في هذه الدولة ، ولايعتبره الناس خيانة الا في حالة الاخفاق ، ثم اننا لاينبغي أن ننسى أن هذا الاغتصاب كان يدعم القوة الامبراطورية في بعض الأحيان . ومن ثم عدلت النظرية الرومانية القديمة ـ فيما يختص بطريقة اختيار الحاكم الأعلى للدولة ـ كما يلي : ان تفويض الحكم للامبراطور ، يخوله حق تتويج خلف له أثناء حياته ، ويظل مستبداً وحده بالسلطان طالما بقي في قيد الحياة ، رغم وجود خليفة الى جواره ، فاذا توفي انتقل السلطان الى خليفته من تلقاء نفسه » .

وهكذا فقد المنتخبون حق الانتخاب ، ولم يبق أمامهم الا ان يحبوا الحاكم الجديد ، قائلين : « مات الملك ، يحيا الملك ! » .

وقد كان مما يميز الأباطرة الشرقيين العسكريين كفايتهم العسكرية كقادة للجيوش في ميادين القتال .

ولم يكن الامبراطور ملك الملوك (٦٤) ، كما كان يسمى رسمياً بعد سقوط الامبراطورية الساسانية ، التي كان كسرى المنازع الوحيد له في هذا

---

(٦٤) اي الباسيليوس Basileus

اللقب ، فقد قال المسيح : « انه وارث هذا العالم » ، فعلى نائبه ــ وهو الامبراطور ــ أن يرعى ادخال العالم في دائرة ملكه . أليس هو الآخر مخلصاً للعالم ؟ أليست قوته هي المدبرة له ؟ اذاً فهو الحاكم الأعلى ، وله الحق في السيادة على العالم كله .

ولم يكن الأمر ليقف الى هذا الحد ، فانه لما كانت مملكة الأرض مصوغة على مثال مملكة السماء ، اذاً فهي ليست عالمية فحسب ، بل خالدة أيضا ، وليس باستطاعة بشر أن يقوض دعائمها . أما الأباطرة الفاسدون ، فليسوا الا عقاباً الهياً للناس ، حتى اذا انتهت مدة عقاب البشر ، وتاب أهل البلاد عن خطاياهم ، أشرقت شمس رحمة الله مرة أخرى ، وهكذا تصبح المسيحية مصدراً دائماً لبعث جديد ، وكانت هذه العقيدة راسخة قبل المسيحية في رومة ، فاستحال ذلك الى عقيدة دينية .

واذا كان الأمر كذلك ، فما هي القيود العملية والنظرية التي تحد من ادعاء الأباطرة السيطرة على الكون ؟

بالرغم من أن الأمبراطور هو المشرع الأعلى ، وبالرغم من أنه لايسأل عما يفعل ، فقد كان عليه لهذا السبب ذاته أن يلزم نفسه بمراعاة القوانين . ولا ننسى أولئك الذين كانوا يحيطون بالامبراطور ، فهم رجال فقهوا التقاليد المحافظة ، تقاليد هيئة الحكم الشديدة التعقيد . وقد أصبح مجلس الشيوخ ــ اذا استثنينا ممارسته لسلطته القديمة في تنصيب الملوك ــ مجلس حكام يفضلون السبل المطروقة ، ومن المؤكد أن الأباطرة لم يعدموا كثيراً من الحكماء والناصحين ، وجدوا من الحكمة ما جعلهم يأخذون بنصحهم .

وقد كان سكان العاصمة أيضاً الى جانب حرس المدينة الرسمي ، حتى القرن السابع الميلادي على الأقل ، يكونون قوة فاعلة ، وكانوا على قوة تمكنهم

من الاخلال بالأمن اذا ما فقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، وعلى استعداد لتقديم مرشح آخر ينافس صاحب العرش ، ونشر الفوضى عن طريق الحرق والقتل . والظاهر أنه حين خدمت المقاومة الشعبية المنظمة لارادة الامبراطور زمن بيت هرقل ، أقام الرهبان أنفسهم نواباً للشعب ، وحملوا لواء المقاومة ضد الأباطرة، واستطاعوا أن يعتمدوا على مؤازرة الأتقياء ، وأثبتوا أنهم خصوم أشد خطورة على الامبراطور من البطريرك الذي كان بأمكان الامبراطور أن يعزله. واستطاع الجيش أيضاً أن يوقف بعنف أي اجراءات لايرى تنفيذها ، اعتماداً منه على قوته .

الا أن هناك قيداً آخر أعمق مما ذكرناه ، ذلك هو التأثير الخفي لتقليد يفترض في الأباطرة : (حب الخير للناس) ، يحتم على الامبراطور اسداء خدمات انسانية جليلة لشعبه ، وكان هذا المثل الأعلى ـ في الواقع ـ قوة كابحة لجماح الامبراطور .

وأخيراً ، كان المنتخبون ، قبل أن يوافقوا على منح أحد من الناس السلطة الامبراطورية ، يستخلصون منه وعداً صريحاً بمراعاة ذلك . ومع مضي الزمن ، أخذ الامبراطور عند تتويجه يقسم قسماً رسمياً ، يبدأ بالاعتراف بالعقيدة الأرثوذكسية ، ويتضمن توكيداً منه لمنشورات بطارقة العالم السبعة ومجامع دينية محلية أخرى ، وحقوق الكنيسة وامتيازاتها ، وبعد بأن يظل خادماً مخلصاً للكنيسة المقدسة ، وابناً باراً بها وحاميا لها ، ويأخذ عهدا على نفسه بأن يظل انسانيا في حكمه لشعبه ، عادلاً بينهم ، وأن يتجنب توقيع عقوبات التنكيل بالناس أو الحكم بالاعدام ما استطاع الى ذلك سبيلا ... وصيغة القسم من الأهمية بمكان ، بحيث تظهر لنا ماكان يتطلبه البيزنطيون من حاكمهم .

زعيم الخزار ، فيعتنق المسيحية ، وسيقوم الامبراطور نفسه بدور الأشبين عند الحوض المقدس ، ومن ثم ينتدب أحد الأساقفة من أتباع بطريرك القسطنطينية للاشراف على مصالح الروم في بلاده • وفي حالة قيام شعبه ضده واسقاطهم له ، يسمح له بالالتجاء الى الامبراطورية ، ومن ثم يعاد بحراب الروم الى مركزه ، وفي هذه الحالة لايبقى عند رجال الدولة ريب في اخلاصه•

ومع أنه لم يكن للامبراطورية ممثلون دائمون لدى الحكومات الأجنبية، الا أن بعثاتها كانت تتوالى ، فتحفظ تقاريرها في ديوان الرسائل الامبراطورية (٦٥) •

٤ ـ الكنيسة الأرثوذكسية :

لم تكتب الحياة لطقوس رومة الشرقية فحسب ، بل احتفظت الكنيسة حتى اليوم بطبيعتها التي اكتسبتها أيام الأباطرة المسيحيين : فآراء هذه الكنيسة في اللاهوت ، وشعائرها ، وصيغها التي كانت تلقى أثناء المراسم الدينية ، ولون حياة الرهبنة والتقشف ، وقديسوها وأعيادها ، ذلك كله تراث من أيام البيزنطيين ، لاتزال تبقي على سلامته روح المحافظة التي لاتلين •

أصبحت القسطنطينية في عصر قسطنطين مدينة مسيحية ، الا أنها ظلت فيما يختص بحق التشريع الكنسي تخضع لأسقف هرقلة ، ونجد أن التاريخ الداخلي للكنيسة بعد أن اعترف بها مجلس الشيوخ ، يكاد يكون سرداً لجهاد أسقف القسطنطينية في سبيل الظفر باستقلاله عن مطران هرقلة من جهة ، وفي سبيل سيطرته على منافسه في الاسكندرية من جهة أخرى • ولقد خرج بطريرك رومة الجديدة منتصراً ، وشاركه الامبراطور هذا النصر ، فقد رأس

(٦٥) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (٧٣ ـ ٩٤) •

جستنيان الكنيسة كملك كاهن ، وأصبحت عاصمته مركز حياة الكنيسة وتنظيمها •

وكان اذا رغبت احدى الأسقفيات في تقديم نفسها على غيرها من مثيلاتها، نظر الناس فيما اذا كانت قد أسست على يد أحد الرسل ، وكان هذا المقياس المعترف به في تقديم الكنائس بعضها على بعض • أما الشرق ، فقد حاول أن يجد تسويغاً لهذا النظام ، وانتهى الى النظرية القائلة : بأن اسبقية المدينة في الميدان الكنسي لابد أن تقوم على أسبقيتها في الميدان المدني • وسعت بيزنطة بعد ذلك الى الأنتصار على رومة • بحجة أخذتها من منطق رومة نفسها ، فاذا كانت رومة تقول بأن القديس بطرس هو مؤسسها ، فقد اكتشفت رومة الجديدة أن باستطاعتها في اعتمادها على تزوير وقتي ، أن تدعى أن القديس ادريس (اندرياس) هو مؤسسها ، والقديس ادريس هو الذي أحضر بطرس الى المسيح لأول مرة • غير أن قساوسة المجمع الديني العالمي الثاني الذي عقد في القسطنطينية سنة (٣٨١م) ، اعترفوا بالنظرية القديمة اعترافاً صريحاً ، وحكموا لأسقفية العاصمة بالمكان الاول في الكنيسة الشرقية بعد السدة الرسولية في رومة : « لأن القسطنطينية هي رومة الجديدة » ، وبذلك تحررت مدينة الأباطرة من سيطرة هرقلة •

وقد نشأت خصومات داخل الكنيسة ، نتيجة لتصميم أساقفة الاسكندرية على أن يستخدموا تأثيرهم وسيطرتهم في مقاومة قوة القسطنطينية الكنسية الناشئة ، وقد انتصرت الاسكندرية ثلاث مرات على القسطنطينية[٦٦] ، وأخيراً هزمت الاسكندرية في مجمع خلقيدونية سنة (٤٥١م) ، لأن البابا والامبراطور صمما على تحطيم كبرياء مصر ، لكن بطريرك الاسكندرية لم يذعن ، فخلع

---

(٦٦) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (٩٩ ــ ١٠٥) .

ونفي ، وكان هدف مجمع خلقيدونية انتصار القسطنطينية والانحياز الكلي للكنيسة الشرقية .

وأجاز المجمع الصيغة الغربية التي نقحها البابا ليو الكبير واوردها في رسالته العقيدية المسماة : Tomos حيث قال : « هناك طبيعتان يجب تمييز احداهما عن الاخرى في المسيح حتى بعد تجسده وهما الالاهية والانسانية ، وقد ظل الاختلاف بينهما باقيا بالرغم من وحدة الشخصية » . وكانت وجهة النظر اللاهوتية عند الاسكندريين تتجه دائماً الى الصوفية والرمز ، وتؤكد طبيعة المسيح المقدسة ، حتى انها لتهمل طبيعته البشرية ، وهكذا ابتلعت الناحية المقدسة الجانب البشري ، وبذلك وصلت الكنيسة المصرية الى اعتقادها بطبيعة مقدسة واحدة . وهكذا وقفت الفئة التي أسست الكنيسة القائلة بطبيعة واحدة صفاً واحداً في مقاومة التعريف الذي انتهى اليه مجمع سنة (٤٥١م) وفي نبذ عقيدة البابا ليو الكبير ، وعلى هذا فقد انتهى بالناس الى الحرب لا الى الصلح .

لقد وحد منشور (زينو Zeno's Henoticon بين الكنائس الشرقية سنة (٤٨٢م) ، الا أن ثمن ذلك كان الانشقاق عن رومة سنة (٤٨٤م) ، كما أسس يعقوب البردعي (Jacobus Baradaeos) أسس الكنيسة اليعقوبية المستقلة في حكم جستنيان . وسعى بيت هرقل مرة أخرى لايجاد اتحاد مع أصحاب العقيدة المقدسة الواحدة غير أن العقيدة القائلة بالقوة الناشئة عن طبيعة واحدة أو ارادة واحدة في المسيح المتجسد لم يكن باستطاعتها الثبات طويلا ، ولم تكف هذه المعضلة عن ازعاج سياسي الامبراطورية البيزنطية ، الا حين استولى المسلمون على سورية ومصر مؤئل الهراطقة ، واستطاعت الامبراطورية بعد ذلك أن تكون أرثوذكسية ، وهكذا استطاع جستنيان الثاني

أن يعقد الصلح مع رومة •

وعندما أصبحت البطريركيات الرومانية الشرقية اسقفيات في بلاد المسلمين ، بقي بطريرك القسطنطينية بلا منازع ، وأصبح تشريعه يسري على الامبراطورية ، الا أن بطريرك العاصمة عاش في ظل القصر الامبراطوري • وكان اخفاق بابوات الغرب في نزاعهم مع كنيسة القسطنطينية ، قد علمهم كيف يحلون المعضلة الدوناتية(٦٧) ، ولم يعد امبراطور الدولة البيزنطية يستطيع بعد ذلك أن يترك للسلطات الكنسية حكومة الكنيسة غير المنظمة ، فقد أبان منشور الامبراطور الذي دعا به الى عقد مجمع نيقية ووجهه لخلفائه ، الطريق بحيث لم يعد بمقدور أي بطريرك لرومة الجديدة أن يقاوم الارادة الامبراطورية ، وتوالت التشريعات في محاربة الهراطقة من جهة والوثنيين من الخلقيدونية ، وانتصار فكرة توحيد الكنيسة ، ختاماً للنزاع الذي قام من أجل السيادة داخل الكنيسة الشرقية •

وشهد القرن السادس الميلادي آخر هجوم شن على الوثنية الباقية في الامبراطورية ، وتوالت التشريعات في محاربة الهراطقة من جهة والوثنين من جهة أخرى خلال أكثر من مائتي سنة ، واستعمل قسطنطين العنف في القضاء على الدوناتيين الافريقيين بحجة أنهم مهددون للأمن أكثر منهم مارقين على العقيدة • وجعل بين السلطة وبين الاشتراك لوظائف الكنيسة ، ونفوا من القسطنطينية وحرم على الوثنيين حق الوراثة والتوريث ودخول وظائف البلاط والجيش ، وجرد الهراطقة أيضاً من حق دخول الجيش • وبالرغم من أن

(٦٧) الدوناتية : فرقة نصرانية ظهرت في افريقية في العصر البيزنطي ، وهي منسوبة الى أسقف يسمى : دوناتوس ، عارض أسقف قرطاجنة ، والتف حوله طائفة من القساوسة ، وتكونت منهم فرقة دينية ، ظلت تناوىء كنيسة قرطاجنة حتى ايام جستنيان .

الهراطقة كانوا يؤدون ما يقع على غيرهم من المواطنين من أعباء ، فقد حرم عليهم التمتع بامتيازاتهم • وحرمت عليهم قوانين جستنيان الاشتغال بالمهن الحرة ، بل تقرر هدم كنائسهم ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وأصبحت شهاداتهم القانونية ضد الأرثوذكسيين غير مقبولة ، وأضحت وصاياهم لاغية ، وفقدوا ما يخولهم حق الوراثة ولو بوصية اختيارية ، وحق وراثة شخص توفي دون أن يوصي ، فأصبح المنشق عن الكنيسة منبوذ المجتمع • وكانت سياسة جستنيان فيما يختص بالمانويين (أتباع مذهب ماني) سياسة ابادة ، فخصائص الروح فوق خصائص الجسد ، واذاً يجب القضاء التام على كل ما من شأنه أن بسبب العدوى •

ويمكن تلخيص آراء جستنيان في الحكومة بالعبارة الموجزة : حكومة واحدة ، وقانون واحد ، وكنيسة واحدة •

وقد صدرت سلسلة أخرى من القوانين ضد الوثنية ، وأدخل في القرن السادس الميلادي ألوف من الوثنين في المسيحية قسراً دون أن يعتنقوها فعلا • ونتج عن تلك التشريعات دخول كثير من غير المسيحيين في المسيحية ، بيد أن الغالب من هؤلاء المتنصرين الجدد كانت رهبتهم للاله المسيحي ناتجة عن خوف من الناس ، في حين ظلت قلوبهم في وادٍ آخر ، اذ ظلت على ولائها للعقيدة القديمة •

وهكذا انحطت المقاييس الأخلاقية والدينية داخل الكنيسة ، وشعر الناس أن الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المتشددة ، فأخذوا يجاهدون في سبيل الافلات من عالم لا يحتمل في نظرهم ، وامتلأت صحارى مصر بطالبي العزلة الذين يبغون الوصول الى الله ، غير أنهم لم ينفصلوا عن الكنيسة المنظمة انفصالا فعلياً، لكنهم كفوا أنفسهم بأنفسهم، وكانوا في غنى عن حظيرة

الكنيسة . وهكذا قامت الرهبنة منفصلة عن الكنيســة ، وكانت من ناحية احتجاجاً فردياً على نظام قام بأكبر نصيب في تأييد الدولة . ولما كانت الكنيسة تسعى لتركيز سلطانها في ادارتها الداخلية ، فقد قررت أن تحول دون بقاء أية حركة دينية خارجة عنها ، ولا مفر لأي لون من ألوان التدين من أن يؤيـد قضيتها ، واذا كان لابد من تكييف الحركة الجديدة بما يلائم أغراض الكنيسة، فأنها ـ أي الكنيسة ـ كانت مستعدة لترتيب معونة مالية مؤقتة توصلها الى أغراضها ، فاذا لم يخضع الميل الجديد الى التقشف لادارتها ، أصبح من اللازم عليها تحطيمه ، وأصبح على الزاهد أن يتصل بأولئك الذين يشاركون الاعتقاد بمثله العليا ، اذ أن ذلك يفسح المجال أمامه لممارسة فضائل المسيحية .

ومهما يكن من أمر ، فان مساكنهم التي اتخذوها لتنسكهم في الكهوف المنعزلة أو جعلوها معلقة فوق صـخور الجبال ، هو الذي ايقظ الشـعور بالاجلال والرهبة والحماسة العاطفية في نفوس عامة الشعب ، فهرع الحجاج من الشرق والغرب لالقاء نظرة على القديس العمودي الذي قضى سنين طويلة على عموده ، حتى فقد القدرة على الوقوف ، وأصبح لا يعينه على الوقوف سوى الرباط الذي يمسكه بعموده .

وسعت الكنيسة مرة أخرى لتحويل هذا التنسك المحبب الشائع لخدمة أغراضها بشتى الوسائل ، فكان نجاحها في هذا المجال محدودا .

وقد رأينا أن الحاج الى الأماكن المقدسة كان يعود حاملا معه تمثالا أو صورة للقديس ، وربما كانت هذه العادة من العوامل التي أعانت على تقوية عبادة الصور التي نشأ عنها نزاع اللاصورية الذي طال أمده .

وقد ضاعت كتابات اللاصوريين ، ونستطيع أن نتبين أسس مهاجمتهم لعبادة التماثيل مما كتبه خصومهم . فلم يكن محطمو الصور من أنصار المذهب

العقلي ، بل كانوا مصلحين دينيين ، فكانوا ينظرون الى شعور الناس بالتقديس نحو الصور والتماثيل نظرتهم الى عبادة الأصنام أو نوع من أنواع الوثنية .

ولم يكن عباد الصور أقل اخلاصاً لمبدئهم ، فالواقع أن كثيرين منهم نظروا للنزاع على أنه جهاد للبقاء ، فشعر صناع الصور المجيدون أن الخطر يتهدد مورد رزقهم ، لأنهم كانوا يعيشون من رسم الصور المقدسة . وظل بعض أنصار الصور ينافحون عن مبدئهم بحجة كان الشرق يقول بها في وقت مبكر منذ القرن الرابع الميلادي ، وأخذها الغرب فيما بعد ، الا وهي أن الصور المقدسة انجيل الجاهل ، فالصور ما هي الا مذكر ، وهي للنظر بمثابة الكلمات للاذن ، مهمتها الافهام والتقريب .

وأخيراً ، انتصر عباد الصور ، وعاشت الصور المقدسة في الكنائس بخاصة والأماكن العامة أيضاً .

وبقي هناك موضوع الخصومة مع رومة ، فقد اتسعت الهوة بين الشرق والغرب مع السنين ، حتى لقد انقطعت الصلة بين البلاطين الشرقي والغربي في أوائل القرن الخامس ، الا أن يكون بعض ما كان يثور بينهما من نزاع في اتصال أحدهما بالآخر اتصال عداء ، فكانت مشاكل الغرب والشرق في هذا العصر اللاهوتي مختلفة ، حيث أن نزعات قواد كنيسة الغرب كانت عملية تدور حول علاقة الانسان بالله ، فكانت مسائلهم تختص بتخليص الانسان أو تحريره من ارادته الانسانية ، ومضوا تحت تأثير أوغسطين ينشئون لعقيدتهم نظاماً خاصاً مقنناً . أما النزاع في الشرق فيدور حول علاقة أفراد الثالوث المقدس بعضهم ببعض ، ودار فيما بعد حول الطبيعة المزدوجة لابن الاله المتجسد . وكانت رومة هي الملجأ الأخير الذي تطلب عونه كل طائفة قليلة مغلوبة على أمرها في الكنيسة الشرقية ، وكان تدخل الغرب على ذلك في نظر الأكثرية

تدخلا تنظيميا من شأنه أن يقوم هرطقات الشرق ، فلم تكن كنيسة رومة على وفاق مع كنيسة القسطنطينية خلال نصف مدة القرون الخمسة التي تقع بين وصول قسطنطين للعرش والمجمع الديني العالمي السابع الذي عقد سنة (٧٨٧م) •

وكان اختلاف اللغة بين الكنيستين أهم من ذلك كله ، فبينما كانت رومة الجديدة تقوم في وسط يتكلم اليونانية ، كانت ايطاليــة في القرن الرابــع الميلادي لا تعرف اليونانية ، بل تتكلم اللاتينية ، فكانت رســائل البابوات للمجامع الدينية الشرقية تقرأ أولا باللاتينية ثم تترجم الى اليونانية لكي يتسنى لرجال الدين الشرقيين فهمها ، وكثيراً ما كانت تترجم ترجمة خاطئة •

ان الشرق والغرب لم يستطيعا التفاهم ، لأن كلاً منهما يجهل لغة الآخر •

ولم يكن كبار البطارقة البيزنطيين في الحقيقة على اســتعداد لأطاعة ما تمليه رومة ، فانتهزوا بشوق فرصة اكتسابهم محبة الشعب، وهاجموا مزاعم البابوية • ولما كان البطريرك والبابا شخصيتين بارزتين في الوقت نفسه ، فقد نتج الانشقاق الديني عن ذلك • وكانت رومة كثيراً ما تلقن القسطنطينية درساً في موضوع الأرثوذكسية ، ولكن بيزنطة حرصت على أرثوذكسيتها الخاصة بها ، واستطاعت أن تدافع عنها في وجه الغرب •

وقد حان الوقت لنتبين نواحي القوة والضعف في الكنيسة الأرثوذكسية •

ان تدينها ينفرنا حين نقرأ أدبها اليوم ، اذ أنها علقت أكبر قيمة على فضيلة البكاء ، مدفوعة الى ذلك بشعور متجدد بالخوف من الخطيئة ، وفيض الدمع انما هو تأثر نفسي خاص بصاحب الترتيــل العاطفي بشــكل رئيس • وان الانسان ليشعر أن فضيلة رجل الكنيسة البيزنطي ، انما كانت صادرة عن الامل بالجزاء في العالم الآخر • كما أن الكنيسة الشرقية أخذت تشــك في القيم

الانسانية وتسعى لكبتها ، فقد اعتبرت الأدب الكلاسيكي القـديم خطـراً واعتبرت تلميذ أفلاطون في عداد الهراطقة ، وكان يعد خائنا • وكانت الكنيسة اغريقية ، فرضت اللغة الاغريقية على أتباعها ، وهكذا قضى على لهجات آسيا الصغرى الوطنية • وقد انقذت الكنيسة الامبراطورية البيزنطية ، ومالت في آخر الأمر الى السعي للتوفيق بين رغباتها ورغبات الدولة ، ولم تكن تفرض على الداخل في مذهبها أعباء كثيرة ، فكانت تبدى تسامحا كبيرا فيما يختص بعقيدته وعبادته السابقتين •

ولكن يجب أن نقرر أنها حددت للعالم المسيحي معاني العقيدة ، واذا كانت كنيسة تابعة للدولة الى حد بعيد ، فقد كانت مشبعة بروح تبشـيرية ، ونجد أن جميع الفنون البيزنطية التي كتب لها البقاء ذات طابع كنسي • واذا كانت هذه الكنيسة قد خضعت للدولة ، فان من رجالها من عانى التشـريد والعذاب والتنكيل من أجل العقيدة • وقد احتفظت الكنيسة في القرون المظلمة بجذوة الهيلينية حية تحت الرماد ، ولاتزال تلك الكنيسة على ولائها لاهدافها التي وضعتها منذ قرون خلت حتى اليوم •

للبحث صـلة

الفهرست

الصفحة

عرض الكتب

انباء وآراء

مجلـــة
المجمع العلمـي العراقي

انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

تصدر اربعة اجزاء في السنة

سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريـد



توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع

- البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .
- البحوث والمقالات التي لا تنشر ، لا ترد الى اصحابها .

(العنوان : بغداد / الوزيرية / ص.ب. ٤٠٢٣)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٨٤

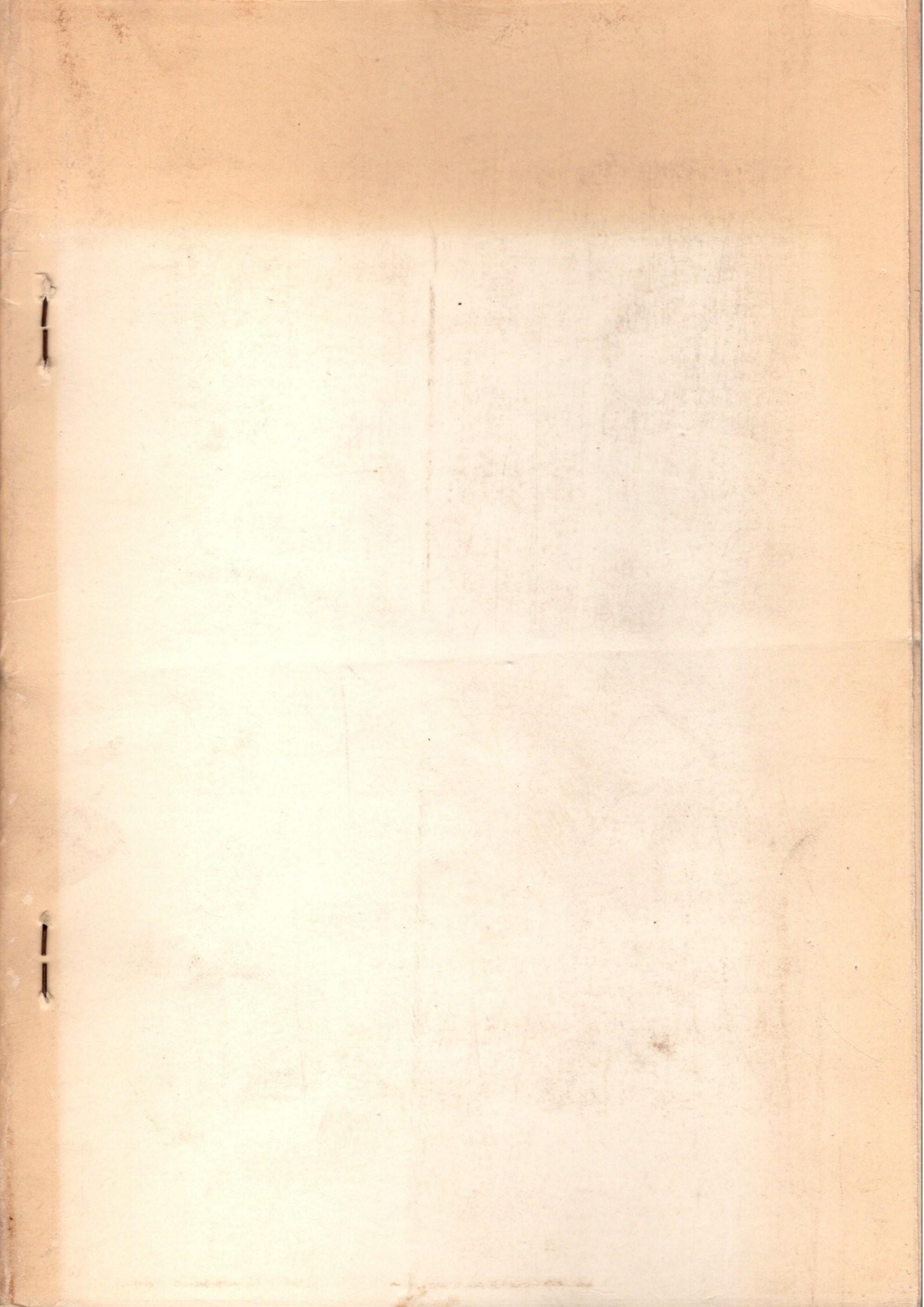
مطبعة المجمع العلمي العراقي ٣٠٠٠ / ١٩٨٤

الجزء الثالث المجلد الخامس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي



شوال ١٤٠٤ هـ
تموز ١٩٨٤ م



بِلادُ الرُّومِ

قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه

- ٢ -

اللواء الركن محمود شيت خطاب



فرزة من : مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الرابع - المجلد الخامس والثلاثون

محرم الحرام ١٤٠٥ هـ
تشرين الاول ١٩٨٤ م

بِلادُ الرُّومِ

قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه

ـ ٢ ـ

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(عضو المجمع)

أ ـ القوات البرية :

أولا التنظيم :

تطور جيش الروم بالتدريج أسوة بالجيوش العالمية الاخرى ، فقد كان الناس في أوائل أدوار تمدنهم قبائلَ يدافع عنها القادرون على حمل السلاح من رجالها ، فاذا هدد القبيلة خطر عسكري ، اجتمع رجالها بلا ترتيب ولا نظام، وبعد المعركة ينال كل فرد من أفراد القبيلة من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة شكيمته ونفاذ شخصيته . ولما تحضر الناس وتقاسموا الأعمال ونشأت الدول ، كان من أقدم المهن عندهم الكهانة والجندية .

وأول دولة نظمت الجند على أسس تنظيمية ثابتة هي الدولة الفرعونية في مصر ، فقد جندت جنداً من الزنوج والأحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، أخضعت بهم سكان سواحل البحر الأحمر ، ثم انتشر أمر التجنيد في الدول القديمة : الآشورية ، والبابليــة والفينيقيــة واليونانية والرومانيــة والفارسية ... الخ ...

وكان نظام جيش الفراعنة هو نظام الصفوف المتعاقبة المتراصة ، والمشهور

أن رمسيس الثاني هو منظم الجيش المصري على هذا النظام المعروف .

واقتبس اليونان نظام الجند المصري ونوّعوه ، فأنشأوا نظام الفرق ، حيث تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة ، وكانت الفرقة مؤلفة من أربعة آلاف رجل ، يصطف رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة أقدام في صفوف متعاقبة الواحد وراء الآخر ، فجعلها فيليب المقدوني ضعفي ذلك ، ثم جعلها ابنه الاسكندر أربعة أضعاف ، وقارب مابين الرجال حتى كادت تتماس أكتافهم وتترابط تروسهم ، ثم اصطنع لهم رماحاً طول بعضها أربعة وعشرون قدماً . وفي هذا النظام تكون رماح الصف الأمامي قصيرة ، ورماح الصف الذي وراء الصف الأول أطول فأطول ، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة أقدام نحو الأمام . وكان فيليب قد نظم فرقةً من الفرسان ، فأضاف اليها ابنه الاسكندر آلات الحرب ومن جملتها المنجنيق ، وبهذا التنظيم تغلب الاسكندر على كثير من الجيوش في كثير من المعارك قبل الميلاد بأربعة قرون .

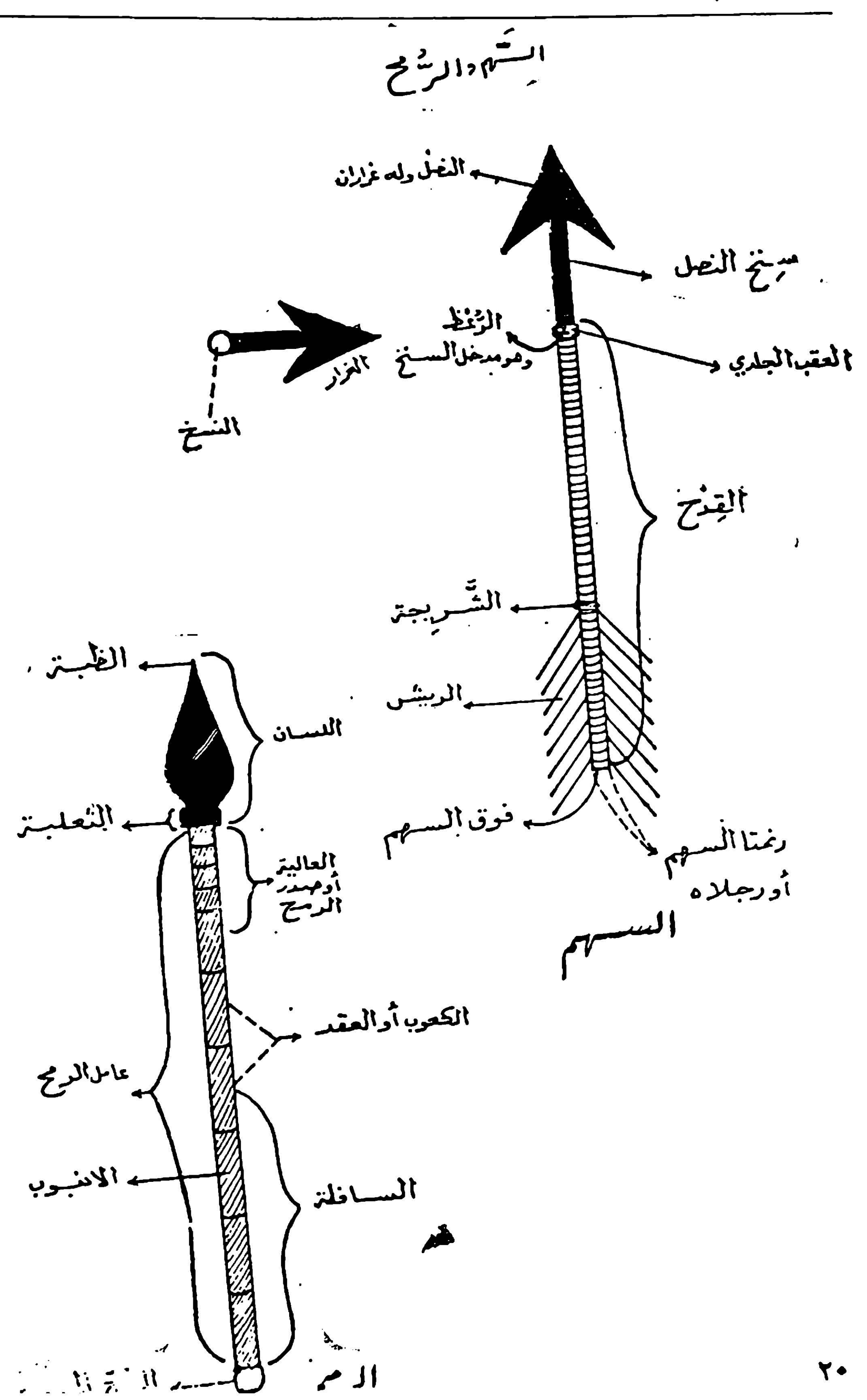
فلما نشأت دولة الروم ، اقتبست نظام الفرق من اليونان ، وأدخلته في تنظيم جيشها البري .

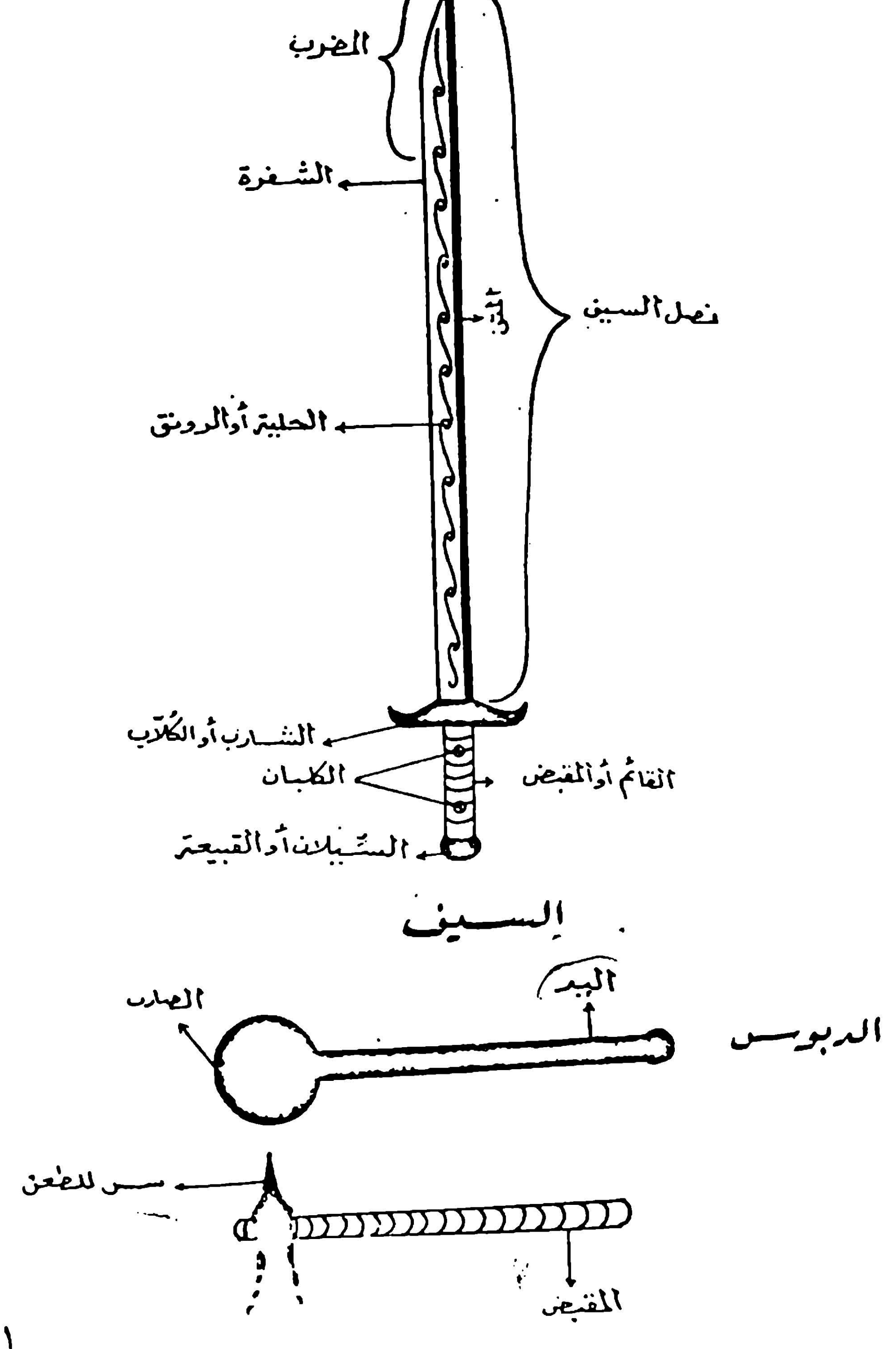
كان الجيش البيزنطي منظماً في فرق ، تعداد كل فرقة عشرة آلاف جندي[1] ، تتألف الفرقة من ثلاث طبقات من المقاتلين : الشباب ومنهم يتألف الصف الأول في الحرب ، والكهول في الصف الثاني ، وأهل الدربة والحنكة في الصف الثالث والصفوف المتعاقبة الأخرى ، وكان يلحق بكل فرقة من المشاة كتيبة من الفرسان تتسلح بالسهام والمقاليق والمزاريق [2] لمشاغلة الأعداء في

---

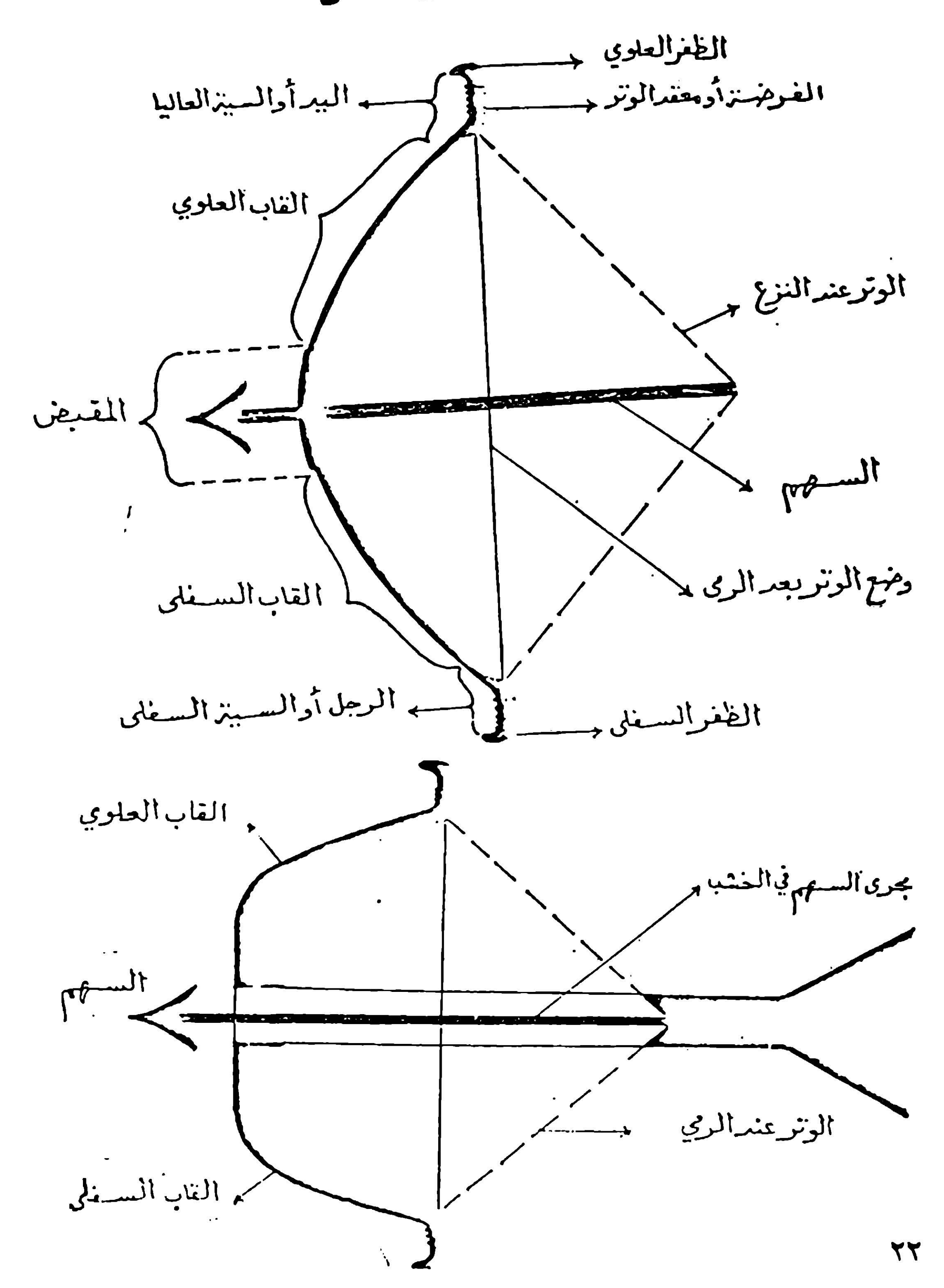
(١) في رواية ، أن تعداد الفرقة ستة آلاف جندي ، ويبدو أن التنظيم مرن ، فهو بين العشرة آلاف والستة آلاف .

(٢) المزاريق : جمع مزراق . والمزراق : الرمح القصير .


السهم والرمح
النصل وله غراران
سنخ النصل
الرعظ
وهو مدخل السنخ
العقب الجلدي
الغرار
السنخ
القدح
الشريجة
الريش
فوق السهم
رجلا السهم
أو رجلاه
السهم
الظبة
اللسان
الثعلبة
العالية
أو صدر
الرمح
الكعوب أو العقد
عامل الرمح
الانبوب
السافلة


المضرب
الشفرة
متن
نصل السيف
الحلية أو الرونق
الشارب أو الكلاب
الكلبان
القائم أو المقبض
السيلان أو القبيعة
اليد
الصدر
الدبوس
سن للطعن
المقبض

السيف


القوس
الظفر العلوي
اليد أو السية العاليا
الفرضة أو معقد الوتر
القاب العلوي
الوتر عند النزع
المقبض
السهم
وضع الوتر بعد الرمى
القاب السفلى
الرجل أو السية السفلى
الظفر السفلى
القاب العلوي
مجرى السهم في الخشب
السهم
الوتر عند الرمي
القاب السفلى

حرب المشاة ، ولاجراء الاستطلاع قبل الاصطدام بالقوات المعادية ، ولحماية المشاة قبل الاصطدام بالعدو وأثناءه ، وللقيام بالمطاردة السريعة بعـــد هزيمة الأعداء •

وكانت كل فرقة من فرق المشاة تضم عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق[٣]، وقد قسم الروم الفرقة الى قسمين : كل قسم مؤلف من خمسة آلاف رجـــل بقيادة (طومرخان[٤] Turmarch) ، وهو ما يشابه تنظيم اللواء في العصر الحديث ، أي أن كل فرقة بيزنطية مؤلفة من لواءين ، تعداد كل لواء خمسة آلاف مقاتل •

وقسموا كل لواء الى خمسة كراديس[٥] ، تعداد كل كردوس ألف رجل، بقيادة قائد اللواء (طرنجارية[٦] Drungairs)

وقسموا كل كردوس الى خمس ســـرايا ، كل ســـرية مؤلفة من مائتى رجل[٧] ، بقيادة (قومس)[٨] •

وقسموا كل سرية الى خمس فصائل ، كل فصـــيلة مؤلفة من أربعـــين

(٣) البطريق : من أشراف الروم يحمل رتبة عسكرية هي رتبة قائد فرقة ، ويشابه في التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء .

(٤) طومرخان : قائد لواء يحمل رتبة عسكرية ، تشابه رتبة قائد لواء في الوقت الحاضر برتبة عميد أو عقيد .

(٥) الكراديس : جمع كردوس ، وهي كلمة يونانية معربة استعملها العرب ، ومعناها : الف جندي . والكردوس يشابه تنظيم الوحدة أو الفوج في المشاة والكتيبة في الخيالة بالنسبة للتنظيم الحديث .

(٦) طرنجارية : يشابه قائد وحـــدة ، فوج أو كتيبة في التنظيم الحـــديث ، الذي يكون برتبة مقدم .

(٧) يشابه تنظيم السرية في الوقت الحاضر .

(٨) قومس : يشابه قائد سرية في الوقت الحاضر الذي يكون برتبة نقيب أو رائـــد .

رجلاً [٩] بقيادة (قمرطخ)[١٠] .

وقسموا كل فصيلة الى أربع حضائر ، كل حضيرة مؤلفة من عشرة جنود بقيادة (الدمرداغ) وهو ضابط صف (انظر المخططات المرفقة) .

هذا هو مجمل تنظيم جيش الروم البري حين ظهر الاسلام وفي أيـام الفتح الاسلامي على عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية ، لذلك قسم خالد بن الوليد رضى الله عنه جيشه الى كراديس في معركة اليرموك الحاسمة سـنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤م) ، وهي تعبية لم تـعبـّها العرب من قبـل [١١] ، وقسم الكردوس الى عشرة أقسام ، على كل قسم (نقيب) ، وقسم كل قسم من تلك الأقسام الى عشرة أقسام فرعية ، على كل قسم منها (عريف) .

ولو لم يطوّر المسلمون تنظيم جيشهم في معركة الـيرموك ، لكان من المشكوك فيه أن ينتصروا ، لأن الروم كانوا متفوقين عليهم فواقاً ساحقا .

ثانيا . التسليح :

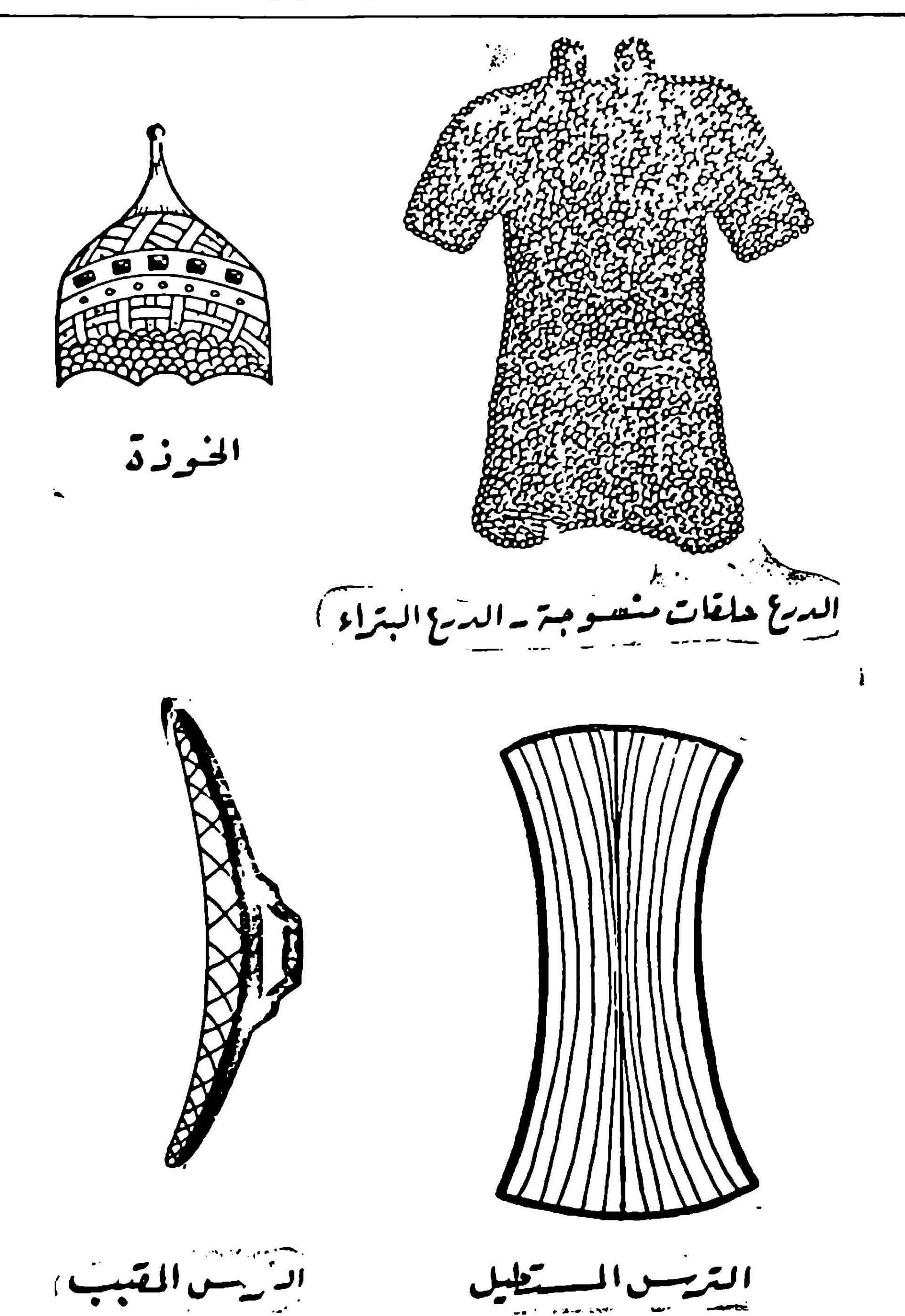
كان الفرسان والمشاة في جيش الروم، يقسمون الى فرقٍ خفيفة السلاح، وفرق ثقيلة السلاح .

وكان الفارس ذو السلاح الثقيل يلبس الخوذة الفولاذية ودرعاًمن الزرد يكسوه من رقبته الى فخذيه وقفازاً من الحديد وأحذية من الفولاذ . وكان يحمل عباءة خفيفة يرتديها فوق سلاحه صيفاً وعباءة فضفاضة من الصـوف يتدثر بها شتاء . وكان سلاحه سيفاً عريضاً وخنجراً ورمحاً وقوسـا للرماية

(٩) يشابه تنظيم الفصيلة في الوقت الحاضر التي تكون بقيادة ملازم .

(١٠) قمرطخ : رتبة عسكرية لقائد الفصيلة ، تشابه رتبة الملازم في الجيوش الحديثـة .

(١١) الطبري (٣/٣٩٦) وابن الأثير (٢/٤١١) .


الخوذة
الدرع حلقات منسوجة - الدرع البتراء
الترس المقبب
الترس المستطيل

وجَعْبَة [١٢] للسِّهام •

واذا كان الفارس ممن يقفون في الصفوف الأمامية ويقوم بالهجوم ، وضعت دروع فولاذية على صدر حصانه وعصابات فولاذية على جبهته •

وكان الفارس ذو الأسلحة الخفيفة عادة من الرماة ، ويرتدى سترة من الزرد •

أما الجنود المشاة المسلحون بالأسلحة الثقيلة ، فيرتدون دروعاً من الزرد تغطى انصاف أجسادهم العليا وخوذاً فولاذية • وكانت أسلحتهم السيف والرمح وفأساً لها نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من ناحية أخرى •

وكان الجنود المشاة المسلحون بالأسلحة الخفيفة ، من الرماة بالقوس ، أو من الذين يطعنون بالحراب ، ويلبسون قمصاناً طويلة من الزرد تصل الى الركب أو دروعاً خفيفة في بعض الأحيان ، ويحملون جعباً للسِّهام فيها أربعون سهماً ، ويحملون فؤوساً في أحزمتهم ، وكانوا يعلقون على ظهورهم تروساً صغيرة مستديرة •

وكان للروم آلات ثقيلة كالبرج والعَرَّادَة [١٣] والدبابة والكبش ، تُحمل بجانب متاع الجيش على الحيوانات أو العجلات •

ويغلب أن كلمة : (برج) مشتقة من اليونانية ، وقد وضعت لبرج متحرك شُيِّد من الخشب ومغطى بالجلد والحديد ، وكان يُستعمل للاقتراب من الحصون والمدن المنيعة لاقتحامها ولقذف السهام أو الاحجار أو أية مقذوفات أخرى • وفي معظم الأحيان يُجرّ البرج على العجلات الخشبية أو الحديدية

(١٢) الجعبة : وعاء السهام والنبال •
(١٣) العرادة : آلة من آلات الحرب القديمة ، وهي منجنيق صغير •

أو يدفع على اسطوانات ، ويتألف البرج من عدة أدوار فوق بعضها يوصل اليها بدرجات من الداخل ، وينتهي البرج بقنطرة خشبية يمكن القاؤها على الحصن أو السور ليرقى عليها الجنود في هجومهم على العدو •

والعرادة آلة أصغر من المنجنيق ، تلقى بها الحجارة على أبعاد كبيرة ، وقدعرفها الفرس وعرفها كثير من الأقوام الأخرى أيضاً •

والدبابة آلة من آلات الحرب ، يدخل فيها الرجال ، فيدبّون بها الأسوار ليثقبوها ، وهي برج متحرك له أحيانا أربعة أدوار : أولها من الخشب، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر • وتصعد الى طبقات الدبابة الجنود لثقب الحصون وتسلق الأسوار ، وكانت الدبابات تسبق المشاة حتى تقترب الى مسافات قصيرة من مواقع العدد أو حصونه ، وهناك تعمل عملها في قذف الحجارة أو كرات النار المشتعلة أو النبال • وكان القادة يخصصون عددا من الجنود للسير خلف الدبابة ، حتى يسوّوا طريقها ويزيلوا الموانع التي يضعها العدو في طريقها •

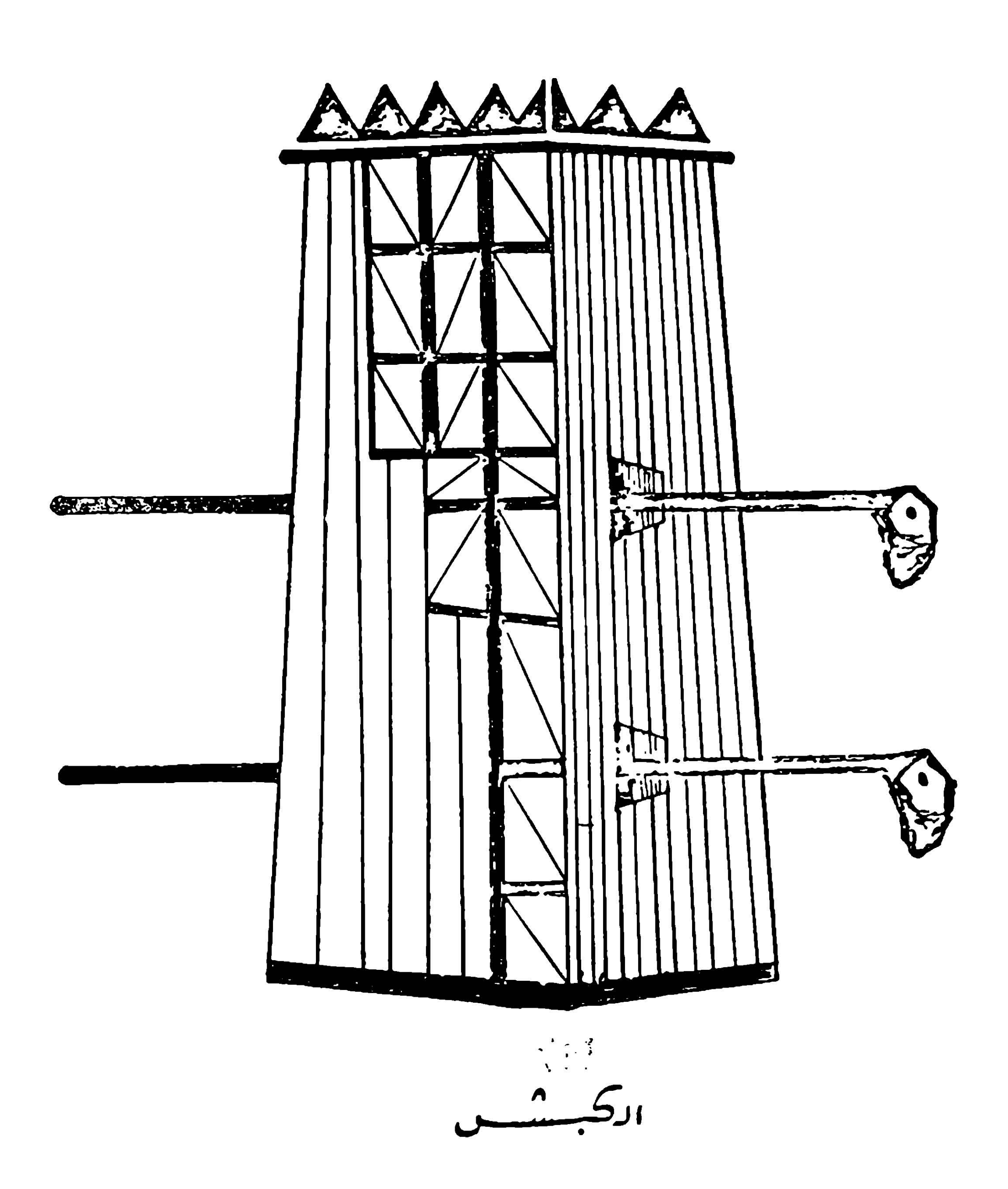
والضَّبر [١٤] ، وجمعه : ضُبور ، مثل رؤوس الاسفاط ، يتقى بها في الحرب ، وهي جلد يغشى خشبا ، يكمن تحته الرجال عند الهجوم أو الانسحاب ، ويحتمون به في تقدمهم الى الحصون لدق جدرانها أو نقبها •

والعيار[١٥] قطعة من الجلد أو القماش قوية قليلة العرض مطوية ، تمسك من طرفيها ، ويوضع الحجر أو الحصاة أو قطع الحديد أو الرصاص المصوب نحو الهدف في وسطها •

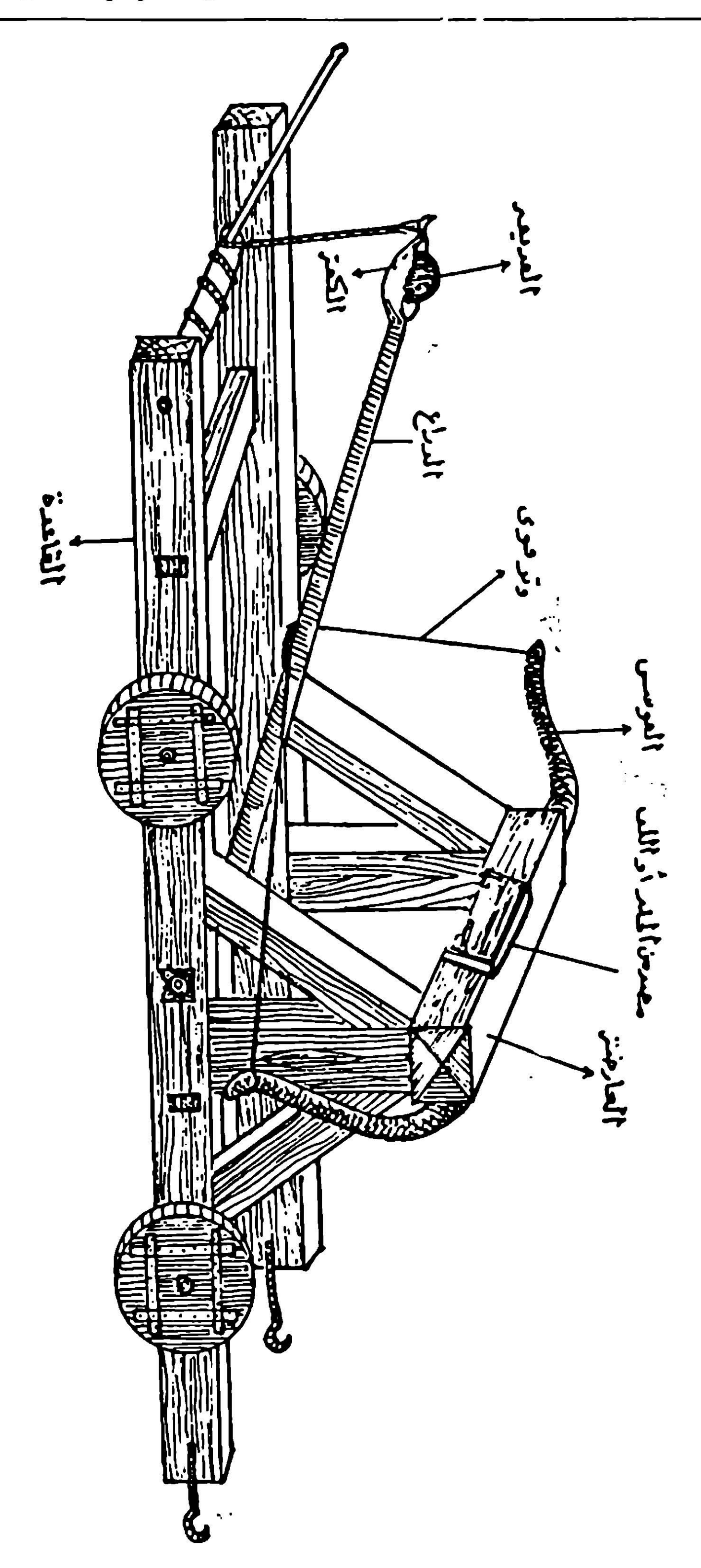
---

(١٤) الضبر : الدبابة كانت تتخذ من الخشب يخشى بالجلد ، يحتمي به الرجال ويتقدمون الى الحصون لدق جدرانها ونقبها .

(١٥) العيار : مأخوذة منها كلمة : العيار الناري ، وهي قذيفة تطلق من المسدس ونحوه .



الكبش


عصب من الجلد أو الليف
العارضة
القوس
وتر قوي
الذراع
الكفة
القاعدة

مؤلفا من سلاح المشاة ، وقديما قالوا : «المشاة سيد الاسلحة» •

والفرسان أو الخيالة ، هم الذين يمتطـون الخيـول ويتدربـون على الفروسية ، والقتال على الخيول كرا وفرا ، ويتعلمون حماية المشاة في مسير الاقتراب ، والهجوم بالخيل ، والاستطلاع قبل القتال وفي أثنائه وبعـده ، وحماية المشاة في الانسحاب ، والقيام بالمطاردة • ويعتمد هـذا السلاح على سرعة الحركة ، وعلى المباغتة ، وعلى التأثير المعنوي على العدو •

والمهندسون ، وهم الفنيون الذين يشرفون على آلات الحصار ، ويرافقون الجيش لتمهيد الطرق واستطلاع المعابر واقامة القناطر والجسور ، وانشـاء الاستحكامات ، وتدمير حصون واستحكامات الأعداء •

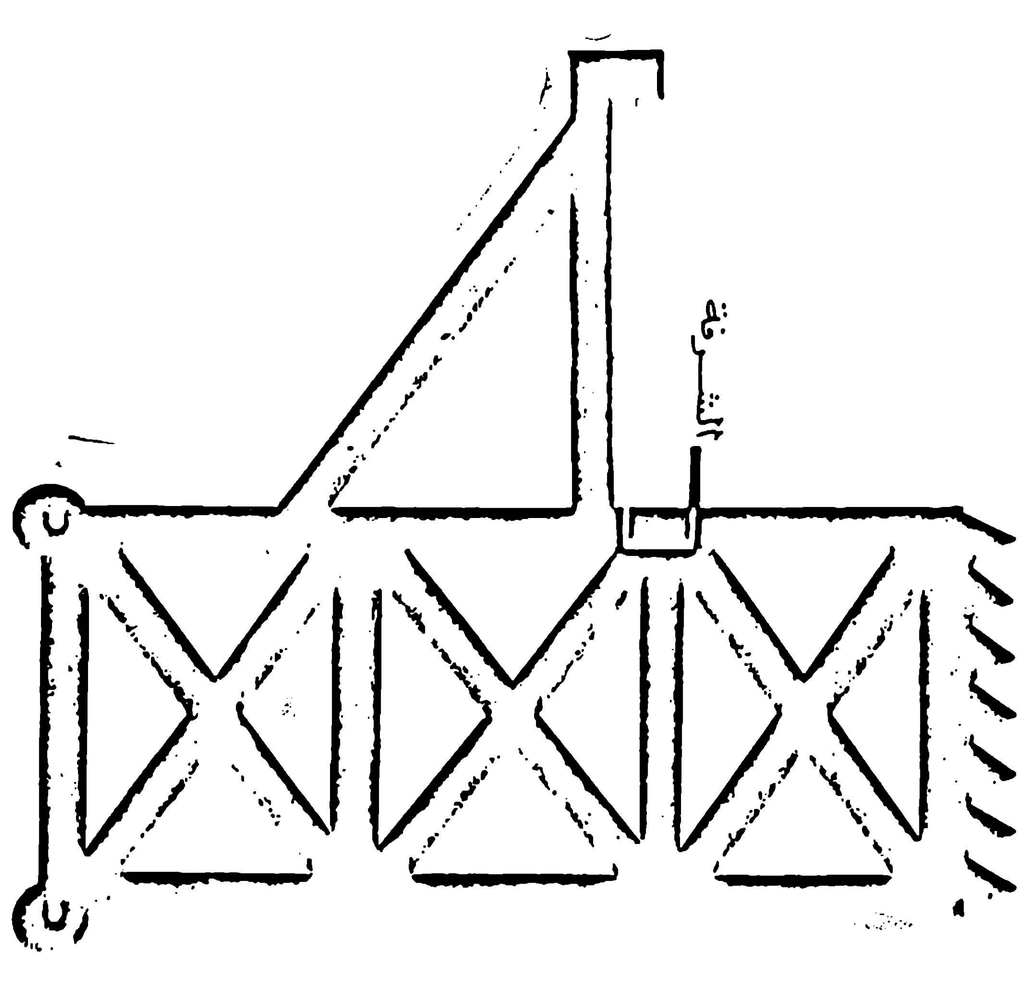
والنفّاطة ، وهم الذين يقذفون النفط على العـدو ، ويعدّون وسائله للقذف ، وللنفاط ثوب خاص يرتديه كي لايصاب بأذى من النفط •

والسيّافة ، وهم المدربون على استعمال السيوف راكبا وراجلا في قتال العدو ، والماهرون منهم في استعمال السيف ، هم الذين يبادرون بالخروج الى المبـارزة •

والرمّاحة ، وهم المسلحون بالرماح، الذين يتقنون استخدامها فيالقتال•

والنشّابة ، وهم المـدربون على رمي السهام • والماهرون في اصـابة أهدافهم اصابات دقيقة هم الرماة ، ويستعان بهم في الرصد وقتل قادة العدو ورجالاته ، وفي اصابة حراس الأسوار والحصون ، ولهم ميزة خاصة وحظوة دون سائر أقرانهم عند قادتهم •

والمنجنيقيون ، وهم المدربون على تشغيل المنجنيق واستخدامه ، وتشغيل أشباهه واستخدامه في ميادين القتال •



الدبابـة

وسلاح الاشارة ، وهم الذين يؤمنون الاتصال بين القائد وقواته داخليا، وبين تلك القوات ومقراتها العليا خارجيا •

وسلاح النقل ، وهم الذين ينقلون السلاح والذخيرة والتموين ومـواد العينة والقضايا الاخرى من قواعد الجيش الى ساحات القتال ، وينقلونهـا من ساحات القتال الى قواعدها ، ويخلون الخسائر من الخطوط الامامية الى المستشفيات •

والأطباء، وهم المسؤولون عن معالجةالمرضى والجرحى من أفراد الجيش، ويشرفون على اخلائهم الى الخلف •

والمرّضون ، وهم الذين يعاونون الاطباء في حمـل رسالتهم الطبية ، وينوبون عنهم في معالجة المرضى والجرحى عند غيابهم أو عدم تيسرهم •

والبياطرة ، وهم المسؤولون عن علاج الخيل والبغال وحيوانات النقل الاخرى •

ورجال الدين ، وهم المسؤولون عن غرس العقيدة وشحذها والتحريض على القتال ورفع المعنويات بين المحاربين من رجالهم •

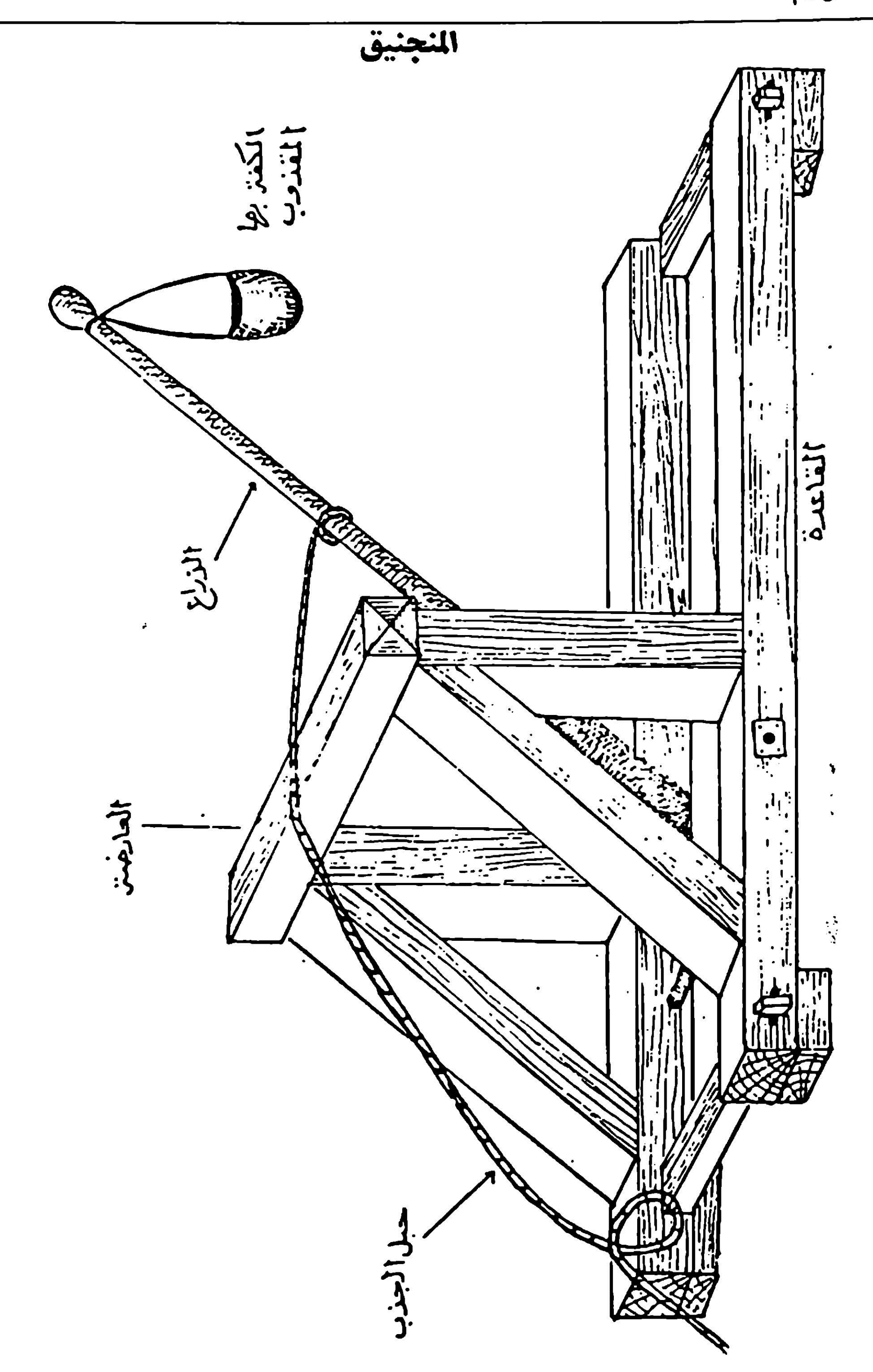
وسلاح الميرة والتموين، وهم المسؤولون عنالتموين للمقاتلين وحيوانات نقلهم ، وتزويدهم بما يطعمون ويشربون •

وسلاح العينة ، وهم المسؤولون عن السلاح والذخـيرة والتجهيزات والمواد الاخرى •

رابعـا • التعبئـة :

كان الروم يعتمدون الحذر والحيطة في قتالهم ، وقلما يبـادرون الى

المنجنيق



اتخاذ الأساليب الخطرة في الحرب وممارسة المجازفة في القتال •

وكان شعارهم الحربي : أقصى المكاسب ، بأقل الخسائر •

وكان على القائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للعمليات العسكرية قبل المشاركة في أي اشتباك حربي ، فالهرب المصطنع ، والمباغتة ، والهجوم الليلي ، والكمائن ، والتظاهر بحضور المدد الكبير ، وابراز أعداد مبالغ بها في حماية الأسوار عند محاصرة المدن والحصون ، والمفاوضات الطويلة لكسب الوقت ، كل هذه الاساليب وأشباهها وسائل مقبولة في الجيش البيزنطي ، ويجري التدريب عليها نظريا وعمليا وممارستها •

وكان الجندي الذي يعتمد على القوة حيث يغنى الدهاء في كسب النصر، يعتبر أبله وجنديا لا كفاية له ، ولا بأس بارسال خطابات مريبة لقادة العدو ، لبذر الشقاق بينهم وبين قادتهم ، كما أنه لا بأس باخبار الجند بانتصارات وهمية لرفع معنوياتهم •

وكانت قوة الروم في أجهزة مخابراتهم ، فقد جعلوا شغلهم الشاغل دراسة سبل عدوهم في الحرب ، ومواجهتها بأفضل الطرق واستحصال أدق تفاصيل المعلومات عن عدوهم •

وكان للروم مقدرة عالية في الحصار ، ولهم قواعد خاصة تختلف تبعا لنوع البرج المحاصر والبيئة المحيطة به ، وكانت هذه القواعد تطبق ، ولكنها لم تكن جامدة ، بل تتسم بالمرونة •

وكانت قوة جيش الروم في خيالته الثقيلة ، وكان نظامه العسكري محكما ، وخدماته الادارية جيدة وذات كفاية •

وكانت له فرق طبية خاصة ، وكان الفرسان التابعون للخدمات الطبية ،

يحملون الجرحى من ميدان المعركة الى أطباء الجيش في المؤخرة •

كما أن سلاح هندسة الروم متمرس على ازالة العقبات الطبيعية ، لـه خبرة جيدة بازالتها ، قادر على اقامة المعابر والقنـاطر والجسـور ، وترميم الأسوار والحصون وادامتها اذا أصابها العطب •

وكانت له أساليب معلومة في اختيار المعسكرات وحمايتها ، وتعالـيم خاصة في مسير الاقتراب وفي الدفاع والهجوم والانسحاب والمطاردة ، وفي زرع الكمائن والربايا في الحروب الجبلية •

وكان يهتم كثيرا بتطبيق مبدأ : (الأمن) لقواتـه المحـاربة ، كما يهتم بمبدأ : (حشد القوى) و (رفع المعنويات) و (تأمين القضايا الادارية) •

وكان للروم مؤلفات فنية عسكرية ، يتعلمون ماجاء فيها ، ويتدربـون تدريبا عسكريا على العمل بموجب مبادئها وتفاصيلها ، ويطبقون محتوياتها بحرص وكفايـة •

لقد كانت للروم فنون تعبوية معروفة من الناحيتين النظرية والعملية ، وكان مجموع الجيوش البرية النظامية في القرن التاسع الميلادي مائة وعشرين ألفا ، ويقدر في زمن جستنيان بمائة وخمسين ألفا • وكان سكان الولايـات الثغرية المختلفة يتحملون نفقات الجيوش العاملة فيها ، ومعلوماتنا عن الجيوش المحلية في الولايات قليلة لاتكفي لاعطاء صورة وافية عن تعدادها وتنظيمها ، ولكن الجيوش المحلية كانت أقل تدريبا وكفاية من الجيوش النظامية ، وكان نظام منح الارض نظير الخدمة العسكرية الذي طبق في القرن الميلادي على حرس الحدود ، قد ظهر ثانية واتسع نطاقه في الولايات الثغرية ، وكان لايجوز انتقال هذه المنح ، لان منحها كان يتضمن الزاما بالخدمة في الجيش يرثه الابن عن أبيه ، فكانت الجندية من المهد الى اللحد ، يرثها الخلف عن السلف • لقد كانت القوى العسكرية مصدر قوة الدولة الحقيقية دون منازع •

تنظيم قوات الروم البرية

الفرقــة

(١٠٠٠٠) مقاتل

- لواء (٥٠٠٠) مقاتل
- لواء (٥٠٠٠) مقاتل

- كردوس (١٠٠٠) مقاتل
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل

- سرية (٢٠٠) مقاتل
- سرية (٢٠٠) مقاتل
- سرية (٢٠٠) مقاتل
- سرية (٢٠٠) مقاتل
- سرية (٢٠٠) مقاتل

- فصيلة (٤٠) مقاتلاً
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً

- حضيرة (١٠) مقاتلين
- حضيرة (١٠) مقاتلين
- حضيرة (١٠) مقاتلين
- حضيرة (١٠) مقاتلين
- حضيرة (١٠) مقاتلين

قيادات قوات الروم البرية ومقارنتها
بقيادات قوات المسلمين البرية على عهد الخلفاء الراشدين
وعهد الدولة الأموية ، وقيادات قوات الجيوش البرية الحديثة

التسلسل	عدد المقاتلين	قيادة الروم	قيادة المسلمين	الرتب العربية حالياً
١	١٠٠٠٠	بطريق	أمير الجيش	لواء
٢	٥٠٠٠	طومرخان	أمير التعبئة	عميد أو عقيد
٣	١٠٠٠	طرنجارية	أمير الكردوس	مقدم
٤	٥٠٠	القومس	قائد السرية	رائد أو نقيب
٥	١٠٠	—	نقيب	—
٦	٤٠	القرطخ	—	ملازم
٧	١٠	الدمرداخ	عريف	رقيب

ب ـ القوة البحرية :

اعتبر الروم القوة البحرية أقل أهمية من الجيوش البرية ، وقد اتجهت رومة الجمهورية الى البحر مكرهة ، ويصدق الحكم نفسه على الامبراطورية البيزنطية ، فقد بنى الأسطول الروماني تحت ضغط الحروب البونية ، وأبقي عليه ليقوم بمراقبة البحار ، ولقهر القراصنة ، وحماية واردات الحبوب المنقولة لرومة والقسطنطينية .

وقد اعتمد حكام القسطنطينية خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين في الدفاع البري عن ممتلكاتهم على التحصينات الضخمة والمراكز القوية التي أقاموها على حدودهم وفي داخل أراضيهم جريا على سياسة الروم التقليدية ، ولكن البيزنطيين وسعوا مجال التحصينات وزودوها بحاميات نظامية ، مع الاستعانة بقوات من الجنود المحليين أو المعاهدين من مستوطني الريف المجاور .

وهكذا كانت المنظومة الدفاعية في مناطق البحر الأبيض المتوسط حتى فتوح المسلمين تقتصر على الاكتفاء بقوات صغيرة من الجنود المحترفين ، تشد أزر قوات الدفاع المحلية في مناطق الخطر .

ولكنه كان للروم في القرن السابع الميلادي قواعد بحرية ودور للصناعة في قرطاجنة وعكا والاسكندرية والقسطنطينية ، حيث تم بناء كثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة بجانب قواعد أخرى في سرقوسة بصقلية وفي سبتة وجزر البليار . اذ بدأت الدولة ببناء أسطولها حين ظهرت على المسرح قوة العرب البحرية ، واضطرت بسبب نشاط معاوية بن أبي سفيان البحري الى الشروع في بناء أسطول بكل ما لديها من جد وعزيمة ، فظهرت خلال القرن السابع الميلادي قيادة بحرية واحدة عليا ، وهي قيادة أميرال (أمير البحر) ، وتخضع لقيادته منطقتان لكل منهما أسطول يقوده نائب أميرال (نائب أميرال

(نائب أمير البحر) ، كما كانت ولايات أخرى تجهز القوى العسكرية اللازمة للأسطول ، ولكن ليو الثالث بعد حصار المسلمين للقسطنطينية ، اعتمد في قوته على جيش آسيا الصغرى البري ، وكذلك فعل خلفه قسطنطين الخامس .

وكان سبب الغاء القيادة العليا الموحدة للأسطول ، هو أن الاسطول نادى بنائب الأميرال امبراطوراً سنة (٦٩٧م) وأسقط الأمبراطور سنة (٧١٣م) وسنة (٧١٦م) ، مما أدى الى اضعاف الأسطول البيزنطي خوفاً على العرش من قادة الأسطول .

والراجح أنه كان للدولة أساطيل اقليمية تشبه أساطيل الامبراطورية . وفي الحرب كانت الدولة تعزّز أسطولها بعدد من السفن التجارية ، لنقل الجنود والامدادات والأسلحة والذخيرة والمواد .

ولم تواجه البحرية البيزنطية عدواً خطراً حتى ظهور الأسطول الاسلامي، فتغيرت تنظيمات البحرية البيزنطية على أثر ضغط الهجمات الاسلامية في القرنين السابع والثامن ، فوضع على رأس كل اقليم قائد حربي له السلطة الحربية والمدنية معاً ، فأتاح ذلك وسائل فعالة للدفاع ، وقد طبق هذا التنظيم في البحرية والجيش البري معاً .

كان تنظيم القوة البحرية البيزنطية في صورته الأخيرة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين عبارة عن أسطول حربي ، قوامه أسطول مركزي امبراطوري في القسطنطينية بقيادة القائد الأعلى للبحرية مباشرة أو عن طريق نائب للقائد الأعلى . وهناك أسطولان اقليميان في الشرق هما أسطول بحر ايجة وأسطول جنوب آسيا الصغرى ، ويخضع كل منهما لقيادة نائب أمير البحر (عميد بحري) ، والى جانبهما قطع بحرية صغيرة في بلاد الشرق . وفي الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، رابط الأسطولان

الاقليميان الرئيسان في صقيلة وفي رافنا ، ويحتمل وجود أسطول اقليمي ثالث في افريقية حتى الفتح الاسلامي لهذه البلاد . وقد احتفظ الأسطول البحري الامبراطوري وكل أسطول اقليمي بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والتجارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى على نفقة الأقاليم التي تقيم فيها الأساطيل (١٩) .

مما تقدم ، يظهر أن بحرية الروم كانت تتألف من بحرية تابعة للامبراطورية ، وهي جاهزة لدعم البحرية الاقليمية ، تتحرك لنجدتها عند الحاجة ، وهي بسيطرة مركزية بقيادة قائد أعلى بحري ، يتسلم أوامره من الامبراطورية مباشرة . لذلك فان هذه البحرية تكون بحرية سوقية ، وتكون احتياطاً عاماً للبحرية الاقليمية ، تتدخل في الحروب التي لا تستطيع البحرية الاقليمية معالجتها كما ينبغي .

أما الخط الأول من البحرية البيزنطية ، فهي البحرية الاقليمية التي تكون مسؤولة عن المناطق النائية عن العاصمة القسطنطينية ، وهذه البحرية مسؤولة عن احباط الاعتداءات الخارجية باتخاذ الاجراءات الفورية لدرئها ، فاذا استطاعت التغلب عليها فانها لا تطلب سند بحرية الامبراطورية ، والا فانها تستمد عونها وتطالب بسندها .

وهذه البحرية الاقليمية، تتبع الحكام المحليين من الناحية العملية ، ولكنها مسؤولة أمام مرجعها الأعلى في القيادة العليا للبحرية التي مقرها القسطنطينية من الناحية الفنية . لذلك كانت هذه البحرية ــ بسيطرة غير مركزية ــ تتلقى أوامرها من الحكام المحليين ، لمعالجة الحروب المحلية ، وقد تتجه من منطقتها لنجدة المناطق المهددة الأخرى بأوامر من القيادة العليا للبحرية البيزنطية . لذلك

---

(١٩) الحدود الاسلامية البيزنطية ــ فتحي عثمان (٣٢٧/١ ــ ٣٣٠) .

كانت البحرية الاقليمية بحرية تعبوية ، أو هي الخط الأول الأمامي للبحرية البيزنطية الامبراطورية .

وحين كانت البحرية البيزنطية أقوى من بحرية الأمم الأخرى في حوض البحر الابيض المتوسط ، جعلت من هذا البحر بحيرة بيزنطية وسيطرت تلك البحرية على الشرق الأوسط .

وحين أصبحت بحرية المسلمين أقوى من بحرية البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط خسر الروم أرض الشام ومصر وشمال افريقية وخسروا الجزيرة وأصبحوا مهددين بعقر دارهم من الفاتحين المسلمين .

ان السيطرة بالبحرية على البحر الابيض المتوسط ، تؤدى الى احراز النصر والسيطرة على منطقة هذا البحر ، كما حدث للفينيقيين واليونان والرومان والروم والعرب في الأزمنة الغابرة وكما هو مسجل في صفحات التاريخ ، وكما حدث في العصور المتأخرة بالنسبة للبرتغال والاسبان وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

لا عجب اذاً ، من تنافس الدول الكبرى في العصور المتعاقبة القديمة والوسطى والحديثة على السيطرة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، لأن ذلك يؤدي الى السيطرة العالمية .

وليس في مقدورنا أن نقدر بالتأكيد القوة التي كان عليها أسطول بيزنطة عادة ، وتدل التفاصيل التي بين أيدينا عن الحملة البحرية البيزنطية الوحيدة ـ التي نملك عنها تفاصيل ـ على أن عدد السفن كان مائة سفينة من الأسطول الامبراطوري ، وسبعاً وسبعين من أسطول الولايات ، بينما كان عدد التجارة (٢٣٠٠٠ ـ ٢٤٠٠٠) من تجارة الامبراطورية و (١٧٥٠٠) من تجارة الولايات .

ويظهر أن عدد سفن الأسطول التي أمكن جمعها لحملة بحرية أيام ميخائيل الثالث (٨٥٨م ــ ٨٥٩م) بلغ عددها ثلاثمائة مركب . وكان رجال الشفن يتكونون من رعايا الامبراطورية ومن المتبربرين المستقرين في أرض الدولة مثل : (المارداثيين Mardates)[٢٠] ومن المرتزقة الأجانب مثل الروس الذين استخدموا أول مرة في الأسطول ، كما يظهر ، زمن الاسرة المقدونية . ويبدو من كتاب : (Tactica) أي الفنون الحربية الذي كتبه ليو السادس ، أن رجال الأسطول كانوا بحارة وجنودا . ولكننا نلحظ في حملة سنة (٩٠٢م) أن جنود الأسطول كانوا شيئاً آخر غير المجدفين ، وكانت السفن المسماة (درمونـد Dromonds) وهي السفن الكبيرة في العصور الوسطى ، واللفظ مشتق من الكلمة اليونانية : (dromos)أي السفينة ، كانت هذه السفن تبنى في الغالب بصفين من المجاديف [٢١] ، وتحمل فوق المائة رجل في الغالب وفيها سبعون من جنود البحر ، والباقون من المجدفين والملاحين .

وبجانب ذلك ، كان هناك سفن ذات طراز مختلف ، منها ما هو أكثر سرعة يسمى : (Pamphylus, Pamphylis) ، وهي ذات صفين من المجاديف ، ومن هذا النوع كانت سفينة القيادة التي تحمل العلم ، وهذا النوع من السفن يستعمل في القتال والمطاردة .

---

(٢٠) المارداثيون : هم جماعة جبلية كانت تسكن نواحي لبنان من قديم الزمان، وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم في الدفاع عن حدودها الشرقية . فلما فتح المسلمون بلاد الشام تراجعوا الى آسيا الصغرى ، وهناك اقاموا يحاربون في صفوف الدولة البيزنطية ، وظلوا يسببون لخلفاء المسلمين متاعب جمة . وظل الأمر على ذلك حتى عقد عبدالملك بن مروان مع الامبراطور جستنيان الثاني صلحا اشترط فيه أن تنقل الدولة البيزنطية جماعات المارداثيين الى ولايات الدولة الداخلية ، فانقطع بذلك شرهم عن المسلمين . انظر : Vasiliev : op. cit. 1, p. 185,

(٢١) الامبراطورية البيزنطية (١٩٣ ــ ١٩٤) .

وكانت هناك سفن بصف واحد من المجاديف : (Galleys) تستخدم للاستطلاع ونقل الرسائل ، كما كان الأسطول الامبراطوري والأسطول الاقليمي أو المحلي يستعين بالسفن التجارية عند الحاجة .

وتوضع في مقدمة السفن آلات" تقذف النيران الاغريقية المخيفة ، وكان التجارة يجهزون بقنابل يدوية تحتوي على نفس المادة القاتلة التي كانت تنفجر بقوة ، على الرغم من أنها كانت لا تأتي بالنتائج التدميرية المرجوة ، ولكنها على كل حال تؤثر في المعنويات تأثيراً عظيما ، أو ترسل تلك النيران بأوعية خلال الهواء بالمنجنيقات ، وربما استخدمت قذائف في دفع مواد سريعة الالتهاب خلال أنابيب باتجاه أهداف بعيدة . وقد حفظ تركيب النار الاغريقية سراً مصوناً ، وكانت لها مخازن ومستودعات في المدن البحرية الكبرى .

وتتسم سياسة الروم البحرية في القتال ، بنفس الحذر الذي كانت تتسم به خططهم العسكرية التعبوية منها والسوقية ، فقد كان أمير البحر في الدولة الشرقية لا يحارب الا اذا كانت جميع الظروف مواتية له ، أو اذا رأى أنه لابد من الحرب لحماية احدى مقاطعات الروم . غير أنه لا سبيل الى الشك في أن الملاحين لا يعتمد عليهم في الغالب ، وكان أهم ما يشغل بال أمير البحر هو أن يدبر أمره في حالة ما اذا هدده الجنود بالانفضاض من حوله [٢٢] .

وليس بين أيدينا سوى القليل من الكتابات عن الفن البحري عند الروم،

(٢٢) الامبراطورية البيزنطية (١٦٤) ، لأن جنود السفن يتكونون من رعايا الامبراطورية ومن الفرنج والروم والافريقيين ومن المرتزقة الاجانب مثل الروس ، والروم الشرقيون وحدهم كانوا من الذين يعتمد على اخلاصهم وولائهم ، لالتزامهم بالدفاع عن وطنهم وممتلكاتهم ، أما غيرهم فلا التزام يشدهم الى الحرب غير الارتزاق ، وهذا يتبخر عند الخطر .

ولكن ما وصل الينا يدل على توجيههم نفس العناية الدقيقة التي كانوا يوجهونها الى علوم العمليات البرية في الجيوش البرية البيزنطية ، الى مبادىء الحرب البحرية وفنون القتال البحري • فقد درس أمراء البحر البيزنطيون الأوصاف الطبيعية للسواحل والبحار والجزر ، وخصائص الرياح بأنواعها والمد والجزر، وأتقنوا فن الخطط والعمليات البحرية ، وجهوا الى فنون الاستطلاع والحصول على المعلومات من مصادرها بشتى الوسائل والاتصالات والاشارات اهتماماً يعادل اهتمام المحاربين في البر • وعلى الرغم من تعدد فترات النشاط البحري، فقد ظل الأسطول مجالا للخدمة العسكرية أقل امتيازاً من غيره ، فكان الجندي البري يتقدم البحار دائماً ، ولم تكن رومة الجديدة في هذه الناحية بالذات كما رأينا ، الا محافظة على تقاليد العاصمة الغربية القديمة •

وكان رجال البحر ــ كما هو الحال في رجال البر ، يتكونون من أسلحة مختلفة : رماة ، ومنجنيقيون ، ونفاطة ، ومهندسون ، وأطباء ، وممرضون ، وأرباب حرف ، واداريون لتصليح السفن وادامتها ، ومجدفون مدربون على الجدف المتواصل الطويل ، الذين مارسوا واجباتهم ، ولهم قابلية على الاستمرار في عملهم مدة طويلة دون كلل أو ملل •

ولكن الأسطول البيزنطي أخذ يتداعى خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ودليل ذلك أن السلاجقة وصلوا الى ساحل آسيا الصغرى الغربي خلال العقد السابع من هذا القرن ، وشاعت الفوضى في الولايات التي كان يجمع منها أكبر جانب من القوى البحرية البيزنطية ، لأنه ثبت للحكومة المركزية أن القيادة البحرية العليا كانت دافعاً قوياً لمن يحملها ويحوزها على التفكير في اغتصاب السلطان ، ومن المرجح أن هذا العامل كان له أثر كبير في الهبوط بالقوة البحرية •

ولو قدر للقسطنطينية أن يكون لها أسطول قادر ، لتوجهت الحملة الصليبية الى مصر لا الى القسطنطينية ، وبالرغم من أنه توفر للامبراطورية حينما انتعشت بعد ذلك ، في ظل باليولوجس (١٢٥٨م ـ ١٢٨٢ م) ، اسطول نشيط على صغره ، الا أن الأيام العظيمة ذهبت مع أمس الدابر الى غير رجعة (٢٣) .

٦ ـ الفكر البيزنطي :

أ ـ التعليم :

ربما كان الرهبان والقسس البسطاء ، يرون في المعارف القديمة شراكاً من شراك الشيطان ، ولكن أبدى أباطرة متلاحقون رغبة في رعاية الجامعات وترقيتها ، وفي زيادة عدد المدرسين ، وفي انشاء المكتبات ، وجمع مخطوطات الآداب القديمة .

وفي القرن الرابع الميلادي ، كان يتدرج الشاب من الطبقة العليا في مراحل التعليم ، فيبدأ الصبي يتعلم القراءة والكتابة في الخامسة أو السادسة من عمره . وفي العاشرة أو الثانية عشرة كان ينصرف الى دراسة النحو ، ولا يقتصر النحو على تعريف الاسماء والافعال وقواعد تركيب الجمل ، بل كان يضم الى جانب ذلك دراسة الآداب القديمة . وحين كانت العبارة تقرأ ، كانت تعرب وتحلل ، وتفسر كلماتها الصعبة والغريبة ، وتدرس اشتقاقاتها الصرفية، ويبين المعنى المراد ، وتعرف قيمته الأدبية ، وكانت تستعمل لهذا المعجمات والشروح والكتب ذات الحواشي والتعليقات . وكانت الروايات المحزنة والمضحكة تقرأ كذلك ، ولم يعترض أي أب من الآباء على الفحش الكبير الذي يرد في روايات الهزليين .

---

(٢٣) الامبراطورية البيزنطية (١٩١ ـ ١٩٢) .

وفي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، كان الولد يهجر النحو الى البلاغة ، وكان الطالب يدرس كتب عدة مؤلفين من كتّاب النثر بخاصة ، وكان الأستاذ يقرأ مثالا مختاراً من أسلوب انشائي معين بصوت مرتفع ، ويطلب الى التلاميذ أن ينشئوا موضوعاتهم على مثاله • وفي ذلك العصر الـذي كانت الثقافة فيه تتركز في المراسلات، كان لابد من دراسة مفصلة لفن كتابة الرسائل• وكانت الرسائل النموذجية تقرأ بصوت مرتفع في المدرسة ، اذ لابد للرسالة من أن تبرز شخصيةالكاتب ، وأن تكون قصيرة مصوغة بأسلوب بليغٍ صافٍ • وكان لابد من أن تكون اللغة فيها سهلة تتخللها الأمثـال الكثـيرة • وكان الاهتمام في الكتابة ينصب على المبنى أولا ، وأما المعنى فأهميته أقل من المبنى ومن هنا تبدو لنا مراسلات تلك المدة متكلفة خالية من العنصر الانساني ، وأنها قد تنحط في كثير من الأحيان الى عرضٍ يدل على اطلاع واسع ولكنه جامد لا حياة فيه •

وكانت السنة المدرسية تبدأ في الخريف ، وتدوم دون انقطاع حتى بداية الصيف ، ثم تتبع ذلك العطلة وتدوم أربعة أشـهر في فصل الحـر • وكانت الدروس تدرس في الصباح ، كما كان بعض الطلاب الكبـار يستمعون الى المحاضرات بعد الظهر • وفي أيام الأعياد وميلاد الملوك وغيرها ، كانت المدارس تقفل أبوابها ، وتقام مصارعات الوحوش والألعاب والروايات في دار التمثيل، وحتى الأساتذة المسيحيون لم يروا أدنى ضرر من أن يتردد الطلاب على دور التمثيل • وكانت تفرد أيام للخطابة بين حين وآخر ، يلقي فيها ذوو الكفايات الخطابية من الطلاب أو الأساتذة نماذج خطابية ، ويدعى لسماعها الأصدقاء والآباء • وكثيراً ما كان الطلاب يستمرئون الكسـل ، كما كانت المشاجرات شائعة بينهم •

وكانت جامعة أثينا ماتزال في القرن الرابع الميلادي أشهر مركز لدراسات

البلاغة ، والى تلك الجامعة يعزى ما كان قد بقى لها من الأهمية . وكان الطلاب القادمون من نواحي الامبراطورية المختلفة يميلون بالطبيعة الى أن يدرسوا على أساتذة من بنى جلدتهم ، وكان أساتذة الفلسفة في الغالب غرباء . وكان الأساتذة أعداء بعضهم بعضاً في كل مكان ، حتى ان قسماً منهم يرى واجباً على طلابهم أن يجعلوا عيش زملائهم منغصاً ما أمكن ذلك . وكان تلاميذ كل أستاذ للفلسفة في أثينا يكونون جماعة متماسكة ، وكانوا يرون أن الاستماع الى أستاذ غيره خيانة كبيرة . وقد بلغت المنافسة بين هذه الجماعات حداً أضحت المعارك معه تنشب بينهم في شوارع أثينا ، وتستعمل فيها الهراوات والحجارة والسيوف . وكثيراً ما كانت الدراسة تهمل ، لتحمس الطلاب يومئذ لألعاب الكرة كما هي الحال اليوم ، بينما كان يقع الكثيرون من الطلاب تحت عبء الدَّين لتبذيرهم النقود على النساء المنحرفات .

وكان الطلاب يأخذون في دراسة الفلسفة في سن الثامنة عشرة أو العشرين ، وكانت هذه الدراسة تاج التعليم في القرن الرابع الميلادي . وقد كانت الحكومة هي التي تقوم بالانفاق على المعلمين في مدن مثل الاسكندرية والقسطنطينية ، أما في أثينا فقد كانت موارد الجامعة تزداد بما يقدمه الطلاب المتخرجون من هبات ، فتكفى لسد حاجة الأساتذة ، وكان فهم مؤلفات أفلاطون يستلزم معرفة عامة بقواعد الرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك . ومن الصحيح أن العصر كان ينظر الى العلم الطبيعي نظرة ملؤها الريبة ، فكان المسيحي يرى أن الكتاب المقدس قد كشف له عن سر الخليقة ونظامها دفعة واحدة ، وكان من السهل أن ينزلق المرء ويؤخذ في تيار آراء منحرفة عن الدين . حتى الفلسفة اليونانية المتعلقة بما وراء الطبيعة كانت شيئاً مريبا ، والذي يتفرغ لدراسة أرسطوطاليس في القسطنطينية ، لا يسلم من الجمهور الذي كان ينبه السلطات دائماً الى ذلك المجرم ، فاذا كتب عن الاستدلال أو الطبيعيات ، فقد

أنشئت مدرسة جديدة للقانون في القسطنطينية سنة (١٠٤٥م) ، ولكن لم تبق هذه المدرسة طويلا • وحينما أقبلت أيام الفوضى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، كانت خزينة الدولة لا تستطيع أن تخصص للتعليم الا قليلا جداً من المال • ولا شك في أن الامبراطورية التي لم تكن لتستطيع أن تقوم بما يتطلبه أسطولها ، كانت تعد الجامعة نوعاً من الترف لا مفر من الاستغناء عنه[٢٤] •

ب ـ الأدب :

تغلبت رومة على الدول التي نشأت عن تفكك امبراطورية الاسكندر الكبير الآسيوية ، ولكنها لم تفلح في فرض الحضارة اللاتينية على البلاد التي تحيط بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، فقد كانت الثقافة الهيلينية واسعة الانتشار ثابتة الأساس فيها • وعلى الرغم من محاولة دقليديانوس وخلفائه تشجيع لغة الغرب (اللاتينية) ، فان اللسان الاغريقي ظل يحفظ مكانته • وقد اقتبس هذا اللسان عدة ألفاظ من اللاتينية في مادة الشريعة والادارة مع عدد كبير من الاصطلاحات العسكرية •

لقد كان أدب رومة الشرقية (القسطنطينية) أدباً يونانياً ، وكان أدباً تحصيلياً ، فقد ورث البيزنطيون منقولات الأساتذة الهيلينيين ، وهم رجال لم يحاولوا أن يصوروا حياة عصرهم بقدر ما حاولوا أن يستعيدوا أفكار الماضي المجيد وأعماله ، فصاغ الأدباء البيزنطيون أدبهم على هذا النوال في قوالب قديمة ، فنشأت الهوة التي لاتزال موجودة ، بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة في بلاد اليونان ، فكانت مؤلفاتهم تعوزها السلاسة التي تصدر عن الطبع ،

(٢٤) الامبراطورية البيزنطية (١٩٦ ـ ٢١٦) •

في الموسيقى الايقاعية ، فقد تأثر النثر الفني بالتطور الجديد • ولما كان أدب روما الجديدة محافظاً قبل كل شيء ، فان غلبة الشعر الذي يوزن بعدد المقاطع ظلت على ما هي عليه ، ولم تهددها النزعة الجديدة بخطر جسيم • وينبغي أن نضيف أن النبر ظل يؤثر في بناء الشعر بصورة متصلة ، وكان له أثر جديد في البحور الشعرية القديمة ، وهذا مثل واضح جداً لقوة التقليد الأدبي •

والمؤثرات الآسيوية بينة بوضوح في الأدب البيزنطي : في كثرة الأخيلة، والبديع ، تلك الكثرة التي قد تبهم العبارة ولا توضحها ، فكان نتاج آباء القرن الرابع الميلادي شديد الزخرف قليل النظام ، ومع ذلك كان خصباً في انسانيته • بيد أننا اذا حاولنا أن نجد هذه الانسانية في الكتابات اللاهوتية ، لم نظفر بغير الحسرة والأسى ، وسيظل المؤرخ واللاهوتي يدرسان هذه الكتابات ، أما القارىء العادي فانه سيطلب متعته في غيرها • وقد استخدمت الفلسفة اليونانية للدفاع عن المسيحية ، ويمكن أن يقال ان عيد الأرثوذكسية (٨٤٣) يرسم نهاية مدة الابداع في اللاهوت وتبدأ مدة التقليد ، اذ فقد تفكير رجال الكنيسة قدرته القديمة على الاستيعاب ، ولم يعد يسمح بأن تتسرب اليه فكرة الفلسفة اليونانية ، وهكذا اصبح الانسانيون في الدولة الشرقية كالهراطقة متهمين في نظر رجال الدين ، وكان علم اللاهوت في الدولة الشرقية منصرفاً تمام الانصراف الى المساجلة العظيمة مع روما •

أما في ميادين الشعر غير الديني ، فلم توفق بيزنطة ابدا الى شيء متميز من الطبقة الاولى ، فمات الشعر السداسي التفاعيل ، واستعمل من ثم الشعر ذو الاثني عشر مقطعا بانتظام ، غير أن الشعر البيزنطي غير الديني لم يستطع أن ينتج أعمالا ذات نفس طويل • وقد عالج بعض الشعراء القصيدة الصغيرة بنجاح ظاهر • أما الشعر الغنائي فقد مات ، واستبعدت مواضيع الحب المتبادل

التي ابتدعتها المدن اليونانية في الشرق الادنى الذي ظهرت المسيحية في أكنافه • وهكذا تحولت الطائفة المنبوذة من المسيحيين في ذلك العالم المعاصر لها الى عالم الروح سعيا وراء الثقة في النفس وحفز الهمة ، وأصبحت لشارات أهل الاسكندرية التي هي المرساة واليمامة معان أخرى جديدة ، وأصبحت صورة هرمز والكبش على كتفه رمزا للراعي الصالح يحمل الخراف الضالة ، بينما صورت صورة المصلين وهم يصلون بين أزهار الفردوس كأنها رمز للرجاء الوطيد المضمون في خلود الروح •

وعندما انتصر المسيحيون المضطهدون في القرن الرابع الميلادي ، طفر الفن طفرة ليتوج نصر المسيحية ، وظهرت الكنائس الى عالم الوجود بفضل عطف الملوك في كل مكان ، وبدا لمنشئيها أن الرمزية القديمة أكثر سطحية واضطرابا من أن تصلح لتجميل الكنائس • لقد انقضى شتاء المسيحية وأقبل ربيعها ، وكان لابد من رواء فخم يناسبه •

وأعادت رومة الجديدة سيادة الدولة الرومانية بعد اضمحلال مدينة رومة في القرن الثالث الميلادي ، فأضافت الالوان ومهارة الزخرفة التي تضفي على الفخامة الامبراطورية لباسا جديدا من الأبهة ، وأضاف الناس الى تصاوير الحيطان فن الفسيفساء الحائطية وتوسعوا فيه ، لانه كان أقدر على التأثير في النفس وأوسع مجالا وأدق خطوطا ، ولان رسومه ترى واضحة عن بعد : فن يحتاج الى مجال واسع ، ولابد له من عون المهندس المعماري حتى يرقى وينمو •

بيد ان العاصمة الجديدة قامت وسط بلاد تتكلم الأغريقية ، وكانت النزعات الانسانية الاغريقية ، والنماذج العظيمة للجمال الانساني التي ابتدعها الخيال الهليني ، لاتزال ذات أثر عظيم الى جانب فنون الزخرفة والتلوين الشرقية • فقد تجمعت في رومة الجديدة الى جانب المخلفات المقدسة للديانة

المسيحية روائع العالم الوثني ، وأصبحت القسطنطينية متحفا ومدرسة للفن لا تجارى • وكان للكنيسة اذ ذاك قصص عظيم تريد أن تحكيه • فقد أرادت أن تسجل بطولات الفدائيين ، وثبات الشهداء في وجـه التعذيب والموت ، بل أرادت أن تصبح جدران هياكلها انجيلا مزينا بالرسوم للمتنصرين الأميين ، وتاريخا مصورا لقصة الفداء •

ورفضت الكنيسة أن تقنع بالزينة وحدها ، ففي الفن الجديد المعقد ، الذي سارت به رومة الجديدة للأمام ، متسع في الحقيقة لكل شيء : كان فيه متسع للعناصر التصويرية لمدرسة الاسكندرية ، وكذلك للطبيعة وما فيها من أشجار الكروم والأشجار المختلفة الاخرى ، ولمشاهد الألعـاب الوثنيـة ، والمناظر الريفية ، وللحيوانات وألعاب الاطفال العراة على شواطىء الأنهـار ، ولكل صور الخيال المبدع ، ومشاهد المواكب الفخمة والقوة ، ومتسع للتلوين السابغ ، ولفخامة النقش الفارسي المتداخل الخطوط المعقد التفاصيل ، ومتسع أيضا لهذه النماذج النبيلة التي أبدعتها الروح اليونانية الانسانية ، بينما أخذت الامبراطورية ما استطاع الشرق تقديمه في فن العمارة ، ورفعته الى طبقـة جديدة ، حتى بلغ أوجه في كنيسة القسطنطينية الكبرى • وكانت القسطنطينية في القرنين الرابع والخامس للميلاد واحدة من المراكز التي تؤثر في غيرها ، وكما أن القرن الخامس الميلادي شهد انتصار سياسة التركيز في المسائل الدينية، فقد أخذ تأثير القسطنطينية يتزايد بالتدريج في دائرة الفن لسببين : ان المراكز الاخرى كانت تسعى وراء هبات امبراطورية لكنائسها وأبنيتها المدنية ، والسبب الثاني هو أن الأباطرة كانوا يرغبون عامدين في نشر تأثير العاصمة • وعـلى الرغم من أن البنائين كانوا ينتمون الى مراكز كثيرة ، فقد اتجهوا الى تحقيق غاية واحدة ، ماداموا يخدمون سيدا واحدا • وفي زمن جستنيان لم تـكن القسطنطينية تخشى أي منافس ، فقد نقل الغرب كنائس رومة الجديدة ، كما

كان يتبع سابقا الأنموذج الذي قرره بيت المقدس من قبل • واذا قلنا ان القسطنطينية قبست القبة وأسلوب الزخرفة القائم على الرخام الكثير الألوان من الشرق ، فاننا نلمس المهارة الاغريقية في الطريقة التي استعملت فيها القباب المعلقة ، حيث كان في الامكان اقامة القبة المستديرة على قاعدة مستطيلة ، برشاقة جعلتها تبدو كما لو كانت معلقة بالسماء • وكان هذا الفن جريئا الى حد عظيم مكنه من أن يدخل في العمارة موضوعات جديدة ، كآلام المسيح الذي تردد أهل العصور التي سبقته في تصويرها ، وتكونت في هذه المدة نماذج الصور المقدسة ، كصور المسيح والعذراء والأنبياء والرسل • بينما أحيا الفن الدنيوي الذي عفت آثاره لسوء الحظ، انتصارات جستنيان الامبراطورية وقواده •

وبينما كان الطراز التاريخي الذي شاع في عصر جستنيان متجهاً الى الاضمحلال ، شجع الأباطرة فنا دنيوياً وطبيعياً ، ذلك الفن الذي رجع الى حدٍ كبير الى الماضي يستوحيه ، فتحول الفنانون الى الريف والحياة الحيوانية ، والى المدن والملاعب ، والى الواقعية في تصوير الأشخاص •

وقد ضاعت معظم آثار الفن البيزنطي المدني ، ولكن كثيراً مما كان يميز الامبراطورية البيزنطية عن غيرها تمييزاً واضحاً ــ وهو فن الكنائس ــ لايزال باقيا • وقد بلغت القسطنطينية أعلى درجات تقدمها الفني في ميدان العمارة بما تتميز به من ادراك مجيد للألوان في فسيفساء الحوائط والتلبيس بالرخام ، ويلي هذا ذلك الكمال الفني الذي يوفي على الغاية فيما ينبغي أن نسميه بالفنون (الصغرى) ، كالحفر على العاج ، ورسم المنمنمات ، والتزيين بالمينا ، وما ابتدعته من الرسوم على النسيج •

وكثيراً ما أزرى الناس بالفن البيزنطي ، بحجة أنه منحط وعديم الحياة ،

ولكن ظهر في السنين الأخيرة اتجاه متزايد لتقدير قيمته الباقية وأهميته [٢٧] .

د ــ القانون الروماني :

القانون الروماني هو أكثر أعمال الروم أصالة ، وأعظم ما أهدوه لمن أتى بعدهم من الناس . وكان من شأن روح النظام الروماني وروح المحافظة الرومانية ، أن ارتفعا بهذا الأثر المهم وحفظاه من الزوال على مر القرون . ونجد اسم جستنيان المشرع مألوفاً لدى الكثيرين ممن لا يعرفون شيئاً من التاريخ البيزنطي كاسم معروف متداول .

واذا أردنا أن نتتبع تطور ذلك القانون زمن الأباطرة الروم الشرقيين ، استطعنا أن نميز أربعة أدوار رئيسة :

(١) دور التقنين الذي بدأ زمن دقليديانوس وبلغ ذروته في عمل جستنيان.
(٢) دور تشريعات الأباطرة اللاايقونيين .
(٣) دور الرجوع الى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين اللاايقونيين.
(٤) دور الرجوع الى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين .
(٥) دور الاضمحلال .

وينبغي ألا يغيب عنا ، أن القانون في ذلك الحين ، كان تعبيراً عن ارادة الحاكم ، فقد كان الحاكم ينفرد برأيه ويختص نفسه بالتشريع .

عندما حل القرن الثالث الميلادي ، كان عصر البناء والانشاء ، بالنسبة للمشرعين الرومان قد أشرف على النهاية . وفي زمن دقليديانوس بدأ عصر التقنين في تاريخ القانون الروماني ، وقد جمعت حوالي هذا الوقت القوانين الأساسية التي أصدرها الأباطرة منذ هدريان حتى دقليديانوس. وتمت بُعَيْد هذا الوقت مجموعة أخرى للقوانين التي أصدرها دقليديانوس . ويظهر أن

---

(٢٧) الامبراطورية البيزنطية (٢٣١ ــ ٢٥٢) .

ثيودوسيوس الثاني من سنة (٤٢٩م) قد خطرت له فكرة عمل قانون عــام ، ولكنه انصرف عن مشــروعه ، ولكن مجمــوعة من القوانــين الأساسـية الامبراطورية صُنِّفت على أيدي لجنة عينت سنة (٤٣٥م) ، ونشرت هذه المجموعة سنة (٤٣٨م) ، وأصبح قانون ثيودوسيوس نافذاً في الغرب والشرق في سنة (٤٣٩م) •

غير أن تصنيف هذا القانون الجديد لم يوقف تيار التشريع الامبراطوري، واستمر الاباطرة يصدرون القوانين • ومن هنا نجد أن الغموض والتناقض قد تسرب الى كيان القانون الروماني • وقد شكا جستنيان من ذلك ، وأخـذت القضايا أمام المحاكم تؤجل الى ما لا نهاية له ، وأخذت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة قدر اعتمادها على أهواء القضاة التعسفية •

وكان جستنيان يعتقد أن الامبراطور يحمل عبء واجب مزدوج ، فقد كان عليه أن يكون القائد الفاتح والمشرع الأعلى في الوقت ذاته ، فاذا كانت القسطنطينية قد اتسعت كثيراً عن طريق انتصارات جيوشها وعدل قوانينها ، فواجبه كوارث لماضي رومة أن يكون جديراً بهذا التراث المزدوج ، ولم يكن له مفر والحالة هذه ، من عمل حصرٍ كامل للقانون الروماني •

وقد وجد الامبراطور في وزير القضاء (اكْوِستر القصر) تريبونيان رجُلـه المنشود ، فعهد اليه في رئاسة لجنة مهمتها جمع القوانين التي أصدرها أباطرة الرومان وتنسيقها وحذف المتشابه منها واستخلاص مجموعة قانونية واحدة منها • وقد وفقت اللجنة في عملها ، فصدرت في شهر نيسان (أبريل) من سنة (٥٢٩م) مجموعة جستنيان القانونية التي وضعت على أساس تشريعات جريجوريان وهيرموجيان وثيودوسيوس ، وضمت كذلك قوانــين الأباطرة المتأخرين التي كانت ماتزال نافذة ، وقد نفذ العمل في أقصى سرعة ، ولم يكن المندوبون العشرة في حاجة لوقت يزيد كثيراً عن سنة لانجازه •

ولكن أصالة جستنيان الحقيقية ظهرت في انشاء الموجز (الدايجست) ، فندب لذلك ستة عشر مندوباً جُدُداً ، وكلفهم في سنة (٥٣٠م) بأن يعملوا مجموعة مختارة من أعمال المشرعين العظام ، يستطيع المحترف وغير المحترف الاستفادة منها ، وقدر لاتمام هذا العمل عشر سنوات ، ولكنه تم في مـدى ثلاث سنين ، فقد نشر ذلك الموجز على الملأ في كانون الأول (ديسمبر) سنة (٥٣٣م) ، وهكذا أقيم في (١٥٠،٠٠٠) سطر ـ على حد قول الامبراطور ـ « معبد للعدالة الرومانية » .

وقد فاق هذا المجموع المستخلص من أعمال المشرعين الرومان الأصول التي استخلص منها ، ومن الطبيعي أن تتوقع ان يكون هناك نقص كبـير في تأليفه ، نظراً لقصر الوقت الذي استلزمه تصنيفه ، وقد قيل الكثير في نواقصه، ولكن يجب ألا يغيب عن الناقد أن موهبة التشريع كانت قد اختفت في البلاد الرومانية ، حتى كان القضاة يكتفون بالاستفادة من مؤلفات قدماء المشرعين بعدّ عناوينها عداً حسابيا ، وأصبح مجرد ذكر عـدد المؤلفات التي اسـتعان بها المحامي كافياً لكسبه القضية .

وتبدو عظمة جستنيان في الواقع كمشرع في ادراكه أن قانون أية أمة هو تطور عضوي يوجز تاريخ تلك الامة ، وعلى الرغم من رغبته في تبسيط الاجراءات القانونية الرومانية ، وفي اضفاء انسانية أكبر على عـدالة الروم ، فانه لم ينشىء كتاباً موجزاً عملياً فحسب ، بل تعدى ذلك الى ما هو أعظم منه، وخلق عملاً لا نصفه بأحسن من وصفه هو له بقوله : ان قانونه «كالقلعة تحمى خلف جدرانها كنوز الماضي من عاديات الزمن الحسود ، وهـو يكشف لأمم الغرب البربرية في الوقت المناسب فكرة دولة تقوم على أساس من القانون » . وقد أصدر جستنيان في تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٥٣٣م) مقدمـة للقانون الروماني ـ سميت النظم ـ صيغت على نمط كتيب سابق للمشرع

جايوس ، ولكنها تضم التغييرات التي طرأت على القانون نتيجــة لتشريعات امبراطورية تالية . وهكذا أحل القانون الجديد في سنة (٥٣٤م) محل قانون سنة (٥٣٠م) ، ولم يبق اليوم بين أيدينا الا هذه النسخة الاخيرة . ومايزال لدينا ما يقرب من ستمائة قانون من قوانــين جستنيان الأساسية ، ونشاطـه القانوني واضح في كل مجال ، وقد قرر الامبراطور أنه اتخــذ لنفسه ثلاث قواعد سار عليها في تحقيق اصلاحاته وهي : (الانسانية) و (المنطق الطبيعي) و (المنفعة العامة) .

وبالرغم من أن أباطرة القرن السابع الميلادي كانوا يصدرون قوانين من وقت لآخر ، فقد كانت هذه تتعلق بصفة رئيسة بالادارة العامــة ، أو بعلاقة الكنيسة بالدولة . ولم تحدث تغييرات واسعة النطاق في القانون الخاص الا في عصر الأبــاطرة اللاايقونيين . واذيعت (الاكلوجا Ecloga) في ســنة (٧٣٩م) ، وهي مختارات من القانون أخذت من تشريع جستنيان بعد اجراء تعديلات « في اتجاه أكثر انسانية » ، ولكن باسيل المقدوني ألغى أو قلب أكثر هذه التطورات رأساً على عقب ، فقد رجع مرة أخرى الى قانون القرن السادس للميلاد .

وفي وقت مابين (٨٧٠م) و (٨٧٩م) ، أذيع كتيب جديد يسمى (بروخيرون Procheiron) ليحل محل (الاكلوجا) ، بينما عينت لجنة لتعــد مجموعة قانونية أخرى كاملة ، بعد أن تستبعد من القوانين تلك الأجــزاء الشاذة التي أدخلها محطمو الصور (اللاايقونيون) الهراطقة . وقد جمع بين سنة (٨٧٩م) و (٨٨٦م) كتيب آخر منقح ، ولكنه على ما يرجح لم يقدر له أن تقره الدولة . واننا لنشك فيما اذا كانت مجموعة باسيل التي تقع في أربعين جزءاً قد قدر لها أن تنشر ، ومن المؤكد أننا لا نملك الا القانون المسمى (البازيليكا) (الاوامر الامبراطورية) والذي يقع في ستين كتاباً ، وقد أذاعه ليو السادس الذي خلف

باسيل المقدوني ، وحتى هذا القانون لم يصل الينا كاملا • وكانت مؤلفات جستنيان لاتزال تدرس حتى بعد ان صدرت البازيليكا ؛ وخصوصاً في القرن الحادي عشر للميلاد ، عندما أسس قسطنطين منوماخوص في سنة (١٠٤٥م) مدرسة للقانون في القسطنطينية ، ولكن كان نشاط هذه المدرسة قصير الأمد• وفي نهاية القرن الثاني عشر للميلاد ، أخذت وجهة النظر القائلة بأن البازيليكا وحدها التي كانت تمثل القانون المعمول به تلقى تأييداً • وحينما أخذ علم القانون يضمحل ، توقف تطور القانون الروماني الخاص ، وكان ذلك بعد حكم ليو السادس • ثم جاء بعد ذلك دور الكتيبات والمختصرات ، وأهملت البازيليكا ، وبلغ الاضمحلال أقصاه عند ظهور (الهيخابيلوس Hexabiblos) أي (الكتب الستة) التي ألفت سنة (١٣٤٥م) ، وقد وصفها بعضهم بقوله : انها موجز لموجزات الموجزات ، وأصبح القانون الروماني في أيامه الأخيرة : « خلط قريب من الكفر » •

وكانت المؤثرات الرئيسة التي أثرت في تطور القانون الروماني في عصوره المتأخرة التي سبقت دور الاضمحلال :

(١) أثر العاطفة المسيحية العامة •

(٢) تأثير الكنيسة كهيئة كانت تعبر عن ارادتها في صورة قوانين تصدرها المجالس والمجامع الدينية •

(٣) العادات الجارية وخصوصاً في الولايات الشرقية •

ومن الطبيعي أن يمتزج بعض هذه العوامل ببعض بصورة دائمة ، وقد يكون من الصعب في أية حالة خاصة أن نعين لأي منها كان التأثير الغالب في هذه الناحية أو تلك •

وعن طريق الدراسة الوثيقة لأوراق البردي ، نستطيع أن نتبين أن وحدة القانون الروماني وطابعه العالمي وسريان العمل به في أنحاء الامبراطورية كلها ،

انما كانت مثلاً عليا للأباطرة لم يُقدَّر لها في حالة التطبيق أن تتحقق تحقيقاً كاملا •

وكل ما نستطيع أن تتبينه الآن ، هو أن قوى العادات الموروثة كان لها رد فعل ضد مجهودات الدولة المركزية ، التي أرادت من ورائها فرض قانون واحد على جميع الرعايا على السواء ، وكانت تلك هي غاية جميع الأباطرة الذين خلفوا قسطنطين (٢٨) •

هـ ـ الحضارة :

ما هو الطابع الأساس لهذه الحضارة البيزنطية ؟ طالما قيل : ان دولة رومة الشرقية « كانت امبراطورية شرقية على وجه التحديد » • والواقع أن رومة الشرقية تشربت عناصر شرقية كثيرة في الفن والقانون الجنائي وحتى في نظرتها الى الحكم • الا أن طابع الحضارة الاساس للقسطنطينية لم يقتصر على الشرق وحده ، بل يشمل امتزاج عنصرين موروثين : العنصر اليوناني الذي اتسمت به مدن شرق البحر الأبيض المتوسط الاغريقية ، والعنصر الروماني الذي تلقته رومة الجديدة من الامبراطورية الرومانية الأولى ، وقد كان امتزاج هذين العنصرين الموروثين تاماً الى حدٍ لا نستطيع معه تمييز عناصر أحدهما عن عناصر الآخر •

على أننا يمكننا أن نقول بوجه عام : ان رومة الشرقية كانت يونانية في اللغة والأدب وعلم اللاهوت والديانة ، وان احساسها بذلك كان تاماً واعيا • أما فيما يتصل بقانونها وتقاليدها العسكرية وديبلوماسيتها وسياستها المالية وتمسكها الدائم بسيادة الدولة ، فقد كانت رومانية •

ومع ذلك يبقى تأثير الشرق في الامبراطورية البيزنطية واضحاً للعيان ،

(٢٨) الامبراطورية البيزنطية (٢٥٣ ـ ٢٧٣) •

لا ينكره البيزنطيون أنفسهم ، ولا ينكره منصف من غيرهم ، ولكن ليس الشرق هو المؤثر الأول والأخير كما يزعم قسم من الباحثين ، لان تأثير الغرب فيها واضح للعيان أيضاً ، فالحضارة البيزنطية شرقية غربية ، مزيج بين الشرق والغرب : جديد الشرق ، وتليد الغرب [٢٩] .

ومن حق القارىء أن يعرف ، أن قسمي الزراعة والتجارة من بحث : الموارد الاقتصادية ، وبحث : تاريخ بلاد الروم قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه، مقتبسة من كتاب : الامبراطورية البيزنطية [٣٠] ، الذي ألفه نورمان بينز وعربه الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد ، وقد ذكرت هذا المصدر في هوامش هذه الدراسة ، الا أن الأمانة العلمية وواجب الشكر العميق للمؤلف والمعربين الأفاضل حملني على تفصيل هذا الشكر والاقتباس في هذا المكان .

وبعد هذا العرض التاريخي للموارد الاقتصادية البيزنطية ، وللتاريخ البيزنطي منذ قيام القسطنطينية الى سقوطها ، يتضح بجلاء وبشكل لاشك فيه ، أن الدولة البيزنطية كانت احدى الدولتين العظميين في العالم : الدولة البيزنطية ، والدولة الساسانية ، وأنها كانت أقوى الدولتين في أيام الفتح الاسلامي ، لان هرقل امبراطور الروم انتصر على الساسانيين انتصارات حاسمة واسترد البلاد التي كان الساسانيون قد اغتصبوها من الروم ، كما أن حضارة الروم كانت أرقى حضارة عالمية في وقتها ، وكان جيشها عريقاً في تنظيمه وتدريبه وتسليحه وقيادته ، كما كان يتحلى بالمعنويات العالية ، لانتصاره على الساسانيين ، وما كان العرب قبل الاسلام في ميزان القوى والحضارة ينافسون الروم ولا يحلمون بمنافستهم ، وما كان الروم ضعفاء قبل الفتح

(٢٩) الامبراطورية البيزنطية (٣١٤ ـ ٣١٥) .

(٣٠) Norman H. Baynes, The Byzantine Empire, London 1946.

الاسلامي وفي أيامه المجيدة •

أما بعد الاسلام ، فقد انتصرت الفئة القليلة من العرب المسلمين على الامبراطورية البيزنطية في : بلاد الشام والجزيرة ومصر وشمالي افريقية ، وهددوا الروم في عقر دارهم !!

كيف حدثت المعجزة ؟! ذلك ما نعالجه في فتح بلاد الروم وشيكا •

اباطرة الروم

من قسطنطين الاول الى قسطنطين الحادي عشر (٣١)

١ ــ أسرة قسطنطين

قسطنطين الاول الكبير توفي سنة ٣٣٧ •
قنسطنطيوس ٣٣٧ ــ ٣٦١ حكم منفردا بعد سنة ٣٥١ •
يوليان المرتد ٣٦١ ــ ٣٦٣ حكم منفردا •
يوفيان Jovian ، ٢٦٣ ــ ٣٦٤ حكم منفردا •
ڤالنس ، ٣٦٤ ــ ٣٧٨ •

٢ ــ أسرة ثيودوسيوس

ثيودوسيوس الاول ، الكبير ٣٧٩ ــ ٣٩٥ حكم منفردا بعد سنة ٣٩٢ •
أركاديوس ٣٩٥ ــ ٤٠٨ •
ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ ــ ٤٥٠ ، كان انثيميوس وصيا من سنة ٤٠٨ــ٤١٤•
مارقيان Marcian ٤٥٠ ــ ٤٥٧ •

---

(٣١) نقلا عن كتاب : الحضارة البيزنطية ــ ستيفن رونسمان ــ لندن ــ ١٩٤٨ ، انظر الامبراطورية البيزنطية (٣٩٩ ــ ٤٠٩) .
Steven Runciman : Byzantine Civilization, pp. 3.1 (London 1948).

٣ ــ أسرة ليو

ليو الاول ٤٥٧ ــ ٤٧٤ .
ليو الثـــاني ٤٧٤ .
زينون ٤٧٤ ــ ٤٩١ ، باسيليكوس المغتصب ٤٧٥ ــ ٤٧٦ .
أناستاسيوس الاول ٤٩١ ــ ٥١٨ .

٤ ــ أسرة جستنيان

جستين الاول ٥١٨ ــ ٥٢٧ .
جستنيان الاول ٥٢٧ ــ ٥٦٥ .
جستين الثـــاني ٥٦٥ ــ ٥٧٨ ، صوفيا وصية من ٥٧٣ الى ٥٧٤ ، وطيباريوس وصيا من ٥٧٤ الى ٥٧٨ .
طيباريوس الثاني ٥٧٨ ــ ٥٨٢ .
موريس ٥٨٢ ــ ٦٠٢ ، ثيودوس شريك في العرش ٥٠٩ ــ ٦٠٢ .
فوكاس Phocas ٦٠٢ ــ ٦١٠ .

٥ ــ أسرة هرقـــل

هرقل الاول ٦١٠ ــ ٦٤١ ، قنسطنطين الثالث ٦١٣ ــ ٦٤١ ، وهرقليوناس ٦٣٨ ــ ٦٤١ .
قنسطنطين الثالث ٦٤١ مارتينة Martina وصية ٦٤١ .
قنسطانز الثاني ٦٤١ ــ ٦٦٨ وهرقل وطيباريوس ٦٥٩ ــ ٦٨١ .
قنسطنطين الرابع ٦٦٨ ــ ٦٨٥ .
جستنيان الثـــاني ٦٨٥ ــ ٦٩٥ .
ليوتتيوس ٦٩٥ ــ ٦٩٨ .

طيباريوس الثالث ٦٩٨ ـ ٧٠٥ .
جستنيان الثاني ٧٠٥ ـ ٧١١ ، للمرة الثانية طيباريوس ٧٠٦ ـ ٧١١ .
فليبكوس ٧١١ ـ ٧١٣ ، وباردانس Bardanes معه .
انستاسيوس الثاني ٧١٣ ـ ٧١٥ ، وأرتميوس Artemius
ثيودوسيوس الثالث ٧١٥ ـ ٧١٧ .

٦ ـ الأسرة الأيسورية

ليو الثالث الأيسوري ٧١٧ ـ ٧٤٠ ، وقسطنطين الخامس ٧٢٠ ـ ٧٤٠ .
قسطنطين الخامس ٧٤٠ ـ ٧٧٥ ، وليو الرابع ٧٥٠ ـ ٧٧٥ .
ليو الرابع ٧٧٥ ـ ٧٨٠ وقسطنطين السادس ٧٧٦ ـ ٧٨٠ .
قسطنطين السادس ٧٨٠ ـ ٧٩٧ ايريني وصية ٧٨٠ ـ ٧٩٠ ، ٧٩٢ ـ ٧٩٧ .
ايريني ٧٩٧ ـ ٨٠٢ .
نقفور الاول ٨٠٢ ـ ٨١١ .
ستوراكسيوس ٨١١ .
ميخائيل الاول ٨١١ ـ ٨١٣ .
ليو الخامس ، الأرمني ٨١٣ ـ ٨٢٠ .

٧ ـ الأسرة العمورية (الفريجية)

ميخائيل الثاني ، العموري ٨٢٠ ـ ٨٢٩ ، وثيوفيلوس ٨٢١ ـ ٨٢٩ .
ثيوفيلوس ٨٢٩ ـ ٨٤٢ .
ميخائيل الثالث ، السكير ٨٤٢ ـ ٨٦٧ ، وثيودورا وصية ٨٤٢ ـ ٨٥٦ ، وباراس وصيا ٨٦٢ ـ ٨٦٦ ، وباسيل الاول ٨٦٦ ـ ٨٦٧ .

٨ ـ الأسرة المقدونية

باسيل الاول المقدوني ٨٦٧ ـ ٨٨٦ وقنسطنطين ٨٦٩ ـ ٨٨٠ ، وليو السادس

ميخائيل السادس ١٠٥٦ ــ ١٠٥٧ ٠
اسحق الاول ، كومنينوس ١٠٥٧ ــ ١٠٥٩ ٠

٩ ــ أسرة دوكاس

قنسطنطين العاشر ، دوكاس ١٠٥٩ ــ ١٠٦٧ ، وميخائيل السابع حوالي ١٠٦٠ ــ ١٠٦٧ ٠
ميخائيل السابع ١٠٦٧ ــ ١٠٦٨ ، وايدوفيا وصية ١٠٦٧ ــ ١٠٦٨ ٠
رومانوس الرابع ، ديوجينيس ١٠٦٨ ــ ١٠٧١ ، وميخائيل السابع ١٠٦٨ ــ ١٠٧١ ٠
ميخائيل السابع ١٠٧١ ــ ١٠٧٨ ٠
نقفور الثالث ١٠٧٨ ــ ١٠٨١ ٠

١٠ ــ أسرة كومنين

ألكسيوس الاول ، كومنينوس ١٠٨١ ــ ١١١٨ ، وقنسطنطين دوكاس ١٠٨١ حوالي ١٠٩٠ ويوحنا الثاني ١٠٩٢ ــ ١١١٨ ٠
يوحنا الثاني ، كالوجوهانيز ١١١٨ ــ ١١٤٣ ، وألكسيوس ١١١٩ ــ ١١٤٢ ٠
مانويل الاول ١١٤٣ ــ ١١٨٠ ، وألكسيوس الثاني ١١٧٢ ــ ١١٨٠ ٠
ألكسيوس الثاني ١١٨٠ ــ ١١٨٣ ومارتة الانطاكية وصية ١١٨٠ ــ ١١٨٢ وأندرونيكوس الاول ١١٨٢ ــ ١١٨٣ ٠
أندرونيكوس الاول ١١٨٣ ــ ١١٨٥ ٠

١١ ــ أسرة أنجيـــل

اسحاق الثاني ، أنجيلوس ١١٨٥ ــ ١١٩٥ ٠
ألكسيوس الثالث ١١٩٥ ــ ١٢٠٣ ٠

ألكسيوس الرابع ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ واسحق الثاني ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ .
ألكسيوس الخامس ١٢٠٤ .

١٢ ـ أسرة الأشاكرة

(امبراطورية نيقية ، ١٢٠٤ ـ ١٢٦١)
ثيودور الاول الأشكري ١٢٠٤ ـ ١٢٢٢ .
يوحنا الثالث ، دوكاس فاتاتزيس ١٢٢٢ ـ ١٢٥٤ .
ثيودور الثاني الأشكري ١٢٥٤ ـ ١٢٥٨ .
يوحنا الرابع ، دوكاس فاتاتزيس ١٢٥٨ .

١٣ ـ أسرة باليولوجوس

ميخائيل الثامن ، باليولوجوس ١٢٥٨ ـ ١٢٨٢ ، وأندرونيكوس الثاني ١٢٧٢ ـ ١٢٨٢ .
أندرونيكوس الثاني ١٢٨٢ ـ ١٣٢٨ ، وميخائيل ١٢٩٥ ـ ١٣٢٠ واندرونيكوس الثالث ١٣٢٥ ـ ١٣٢٨ .
أندرونيكوس الثالث ١٣٢٨ ـ ١٣٤١ .
يوحنا الخامس ١٣٤١ ـ ١٣٤٧ ، وحنة أميرة سافوي وصية ١٣٤١ـ١٣٤٧ .
يوحنا السادس ، كانتاكوزيني ١٣٤٧ ـ ١٣٥٥ ، ويوحنا الخامس ١٣٤٧ ـ ١٣٥٥ وماتيوكانتاكوزيني ١٣٤٨ ـ ١٣٥٥ .
يوحنا الخامس ١٣٥٥ ـ ١٣٧٦ .
أندرونيكوس الرابع ١٣٧٦ ـ ١٣٧٩ ويوحنا السابع ١٣٧٦ ـ ١٣٩٠ .
يوحنا الخامس ١٣٧٩ ـ ١٣٩٠ ، وأندرونيكوس الرابع ١٣٧٩ ـ ١٣٨٥ ومانويل الثاني ١٣٧٦ ـ ١٣٩١ .
يوحنـا السابع ١٣٩٠ .

يوحنا الخامس ١٣٩٠ـ ١٣٩١ .

مانويل الثاني ١٣٩١ ـ ١٤٢٥ ، ويوحنا السابع ١٣٩٩ ـ ١٤١٢

ويوحنا الثامن ١٤٢٣ ـ ١٤٢٥ .

يوحنا الثامن ١٤٢٥ ـ ١٤٤٨ .

قسطنطين الحادي عشر ١٤٤٨ ـ ١٤٥٣ .

دراجاسيس .

ملاحظة :

كان بعض أباطرة الدولة البيزنطية يشتركون في الحكم كشركاء للامبراطور القائم أو معاونين له قبل أن ينفردوا بالسلطان .

وقد وضعنا أسماءهم حين حكموا على هذه الصورة ازاء الأباطرة الذين شاركوهم في الحكم ، ثم عدنا فكتبنا اسماءهم في قائمة الاباطرة الرئيسة عندما تولوا الحكم .

أرجو ملاحظة ذلك عند دراسة هذه القائمة .

فتح بلاد الروم

١ ـ الموقف العـام :

أ ـ كان العرب قبل الاسلام ، على صلة وثيقة بالروم حكومة وشعبا ، فقد كان سكان الجزيرة عربا ، وكانوا أغلب سكان هذا الاقليم الذي يقع بين النهرين : دجلة والفرات ، وكانت الجزيرة تحت حكم الروم ، كما ذكرنا ذلك في بحث : بلاد الجزيرة •

وكانت دولة الغساسنة العربية قبل الاسلام في جزء من بلاد الشـام ، وقد قامت هذه الدولة للروم مقام دولة المناذرة في العراق للفرس ، فكانت دولة حاجزة اتخذ الروم منها مجنا [٣٢] يقيهم شر هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء من جهة ، وليثيروهم ضـد الفرس ويستعينوا بهـم عليهم من جهة أخرى[٣٣] ، فكان عرب الجزيرة والغساسنة على صلة قوية وتعـاون مستمر بالروم وبعرب الجزيرة العربية وبخاصة تجار قريش •

وقد ذكرنا في الحديث عن طرق التجارة البيزنطية التي تصـل الشرق الاقصى ببلاد الروم وبالعكس ، أن أحـد تلك الطرق الثلاثة المهمة ، وهـو طريق الهند والصين البحري عبر البحر الاحمر ، يمر بمكة باعتبارها مركزا مهما للتجارة قبل الاسلام ، ويتصل بتجارته أهل مكة العاملون بالتجارة ، مما يؤدي الى التعارف والاتصال •

---

(٣٢) المجن : الترس •

(٣٣) كتاب : عصر ما قبل الاسلام ـ محمد مبروك نافع (١١١) ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ ـ ط ٢ •

وفي سورة قريش المكية : (لايلاف قريش • ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) [٣٤] ، وكانت رحلة تجار قريش الى اليمن شتاءا لانها دافئة ، ورحلتهم الى الشام صيفا لانها باردة ، فيمتارون ويتجرون [٣٥] ، وكانت بلاد الشام يومئذ من أملاك الروم ، مما أدى الى اتصال العرب بالروم مباشرة في هذه الرحلة وفي المعاملات التجارية ، فكان لقسم من تجار قريش من أهل مكة وتجار الأوس والخزرج من أهل المدينة معرفة شخصية بحكام الروم ومنهم الأمبراطور وبشعب الروم من التجار ورجال الدين المسيحي ، كما سيرد ذكره قريبا •

وقد سافر النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث مرتين الى بلاد الشام• مرة مع عمه أبى طالب في تجارته [٣٦] ، ومرة مع ميسرة غلام خديجة بنت خويلد بعد زواج النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة [٣٧] ، فعرف بلاد الشام وعرف الروم •

وقصة الشاعر الجاهلي أمرىء القيس الذي قصد قيصر الروم يستمده معروفة ، فلما صار امرؤ القيس الى ملك الروم أكرمه ونادمه ، واستمده فوعده ذلك ، وقد وصف أمير الشعراء الجاهليين سفره الى بلاد الروم ولقاءه بملك الروم في شعره الرائع ، ولاتزال كتب الأدب تحفل بهذا الشعر المتين [٣٨] ، وهذا يدل على عمق الصلة بين العرب في جاهليتهم وبين الروم •

---

(٣٤) الآيتان الكريمتان من سورة قريش (١٠٦ : ١ ـ ٢) •
(٣٥) انظر تفسيرها في : الكشاف (٣/٢٨٩ ـ ٢٩٠) وابن كثير (٩/٣٠٤ـ٣٠٧) والبغوي (٩/٣٠٤ـ٣٠٧) والجامع لأحكام القرآن (٢٠/٢٠٠ـ٢٠٩) وفي ظلال القرآن (٣٠/٢٦٠ـ٢٦١) •
(٣٦) سيرة ابن هشام (١/١٩٤) •
(٣٧) سيرة ابن هشام (١/٢٠٣) •
(٣٨) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة (١/٦٠ ـ ٦٢) ـ لبنان ـ ١٩٦٤ •

ب ــ وجاء الاسلام ، فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليه سرا، ثم أصبحت الدعوة الى الاسلام علنية ، فاشتد عضد الاسلام والمسلمين باقبال الناس على اعتناقه ، حتى أصبح خطرا يتهدد مصير المشركين من قريش في مكة ، وكان مولد الاسلام في ١٧ رمضان الموافق ٦ آب (أغسطس) من سنة (٦١٠ م) [٣٩] .

وكانت الحرب مستعرة بين الروم والفرس ، بدأت سنة (٦١٠ م) وانتهت سنة (٦٢٨ م) ، وفي تلك الحرب انتصر الفرس على الروم في صفحتها الاولى ، فاحتلوا ارمينية والجزيرة وبلاد الشام والقدس واستولوا على العود المقدس للصليب ، واحتلوا مصر والعراق وهاجموا القسطنطينية واحتلوا مناطق شاسعة من آسيا الصغرى ، واستمرت انتصارات الفرس على الروم حتى سنة (٦٢٢ م) ، حيث أعاد الروم الكرة على الفرس ، فاستعاد الروم ارمينية ، وانتصروا على الفرس في معركة (نينوى) الحاسمة سنة (٦٢٧م) ، وفي سنة (٦٢٨م) كتب ملك الفرس الى هرقل ملك الروم يطلب الصلح ، فصالحه هرقل على شروط أهمها : العودة الى الحدود القديمة ، واطلاق الاسرى ، وارجاع الصليب المقدس ، فقبل شيرويه ملك الفرس هذه الشروط [٤٠] . واحتدم الجدل بين المسلمين الأولين السابقين الى الاسلام بمكة قبل الهجرة وبين المشركين ، ولما كان الروم أهل كتاب دينهم النصرانية ، وكان الفرس غير موحدين دياناتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وفألا بانتصار ملة الكفر على ملة الايمان . ومن ثم نزلت الآيات الاولى من سورة الروم : (ألم . غُلِبَتِ الروم . في

(٣٩) سيرة خاتم النبيين (٤٣) ــ ابو الحسن علي الحسني الندوي ــ بيروت ــ ١٣٩٨ هـ ــ ط ٢ .
(٤٠) الروم ــ أسد رستم (١/٢٢٣ ــ ٢٢٧) .

أدنى الارض ، وهم من بعد غَلَبِهم سيغلِبون • في بضع سنين ، لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم) [٤١] تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الايمان من كل دين [٤٢] • لقد كان المسلمون منحازين بعاطفتهم الى الروم ، أما كفار العرب فكانوا يميلون الى الفرس ، وشبيه الشيء منجذب اليه ، ولا أدل على ذلك من أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه راهن أبى بن خلف وهو من وجوه كفار قريش على مائة بعير أن الروم سينتصرون [٤٣] • ان احتدام الجدل بين المسلمين والمشركين حول الروم ، دليل على تطلع الجانبين على اخبارهم وتتبع الأخبار واقتناصها ، ولا يكون ذلك الا لأهمية الروم في نفوس العرب بالرغم من تناقض عقيدتهم •

ج ـ وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، وهاجر معه من هاجر من المسلمين ، فازداد تماس المسلمين بالروم في السلام والحرب •

فقد أقبل دِحيَة بن خليفة الكلبي [٤٤] من عند قيصر الروم وقد أجازه وكساه ، وكان من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي طريق عودته الى المدينة المنورة لقيه الهُنَيد بن عارض وابنه عارض بن الهنيد في

---

(٤١) الآيات الكريمة من سورة الروم (٣٠ : ١ ـ ٥) .
(٤٢) انظر تفسير الآيات الكريمة في : ظلال القرآن (٢١/٢٠ ـ ٢٢) وصفوة التفاسير (١٢/٦) .
(٤٣) الروم (١/٢٣٤) ، وابى بن خلف بن وهب بن جمح القرشي الجمحي ، قتل مشركا يوم احد ، انظر جمهرة انساب العرب (١٥٩) .
(٤٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

ناس من بني جُذام ب (حِسْمى) [٤٥] ، فقطعوا عليه الطريق ، ولم يتركوا عليه الا سَمَل ثوب ، فسمع بذلك نفر من بني الضُّبيب ، فنفروا اليهم ، واستنقذوا لدحية متاعه .

وقدم دحية على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك ، فبعث زيد ابن حارثة الكلبي[٤٦] في خمسمائة رجل، ورد معه دحية ، فأدبت سرية زيد بني جُذام وقتلت الهنيد وابنه [٤٧] ، وهذا يدل أن قسما من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم علاقة بملك الروم ، كما أن بادية الشام التي تقع فيها (حِسمى) كانت تحت نفوذ الغساسنة حلفاء الروم ، ومهاجمة من فيها مهاجمة مباشرة للروم لأن جذام حلفاؤهم .

وكانت سرية حسمى في جمادى الآخرة من السنة السادسة الهجرية (٦٢٧ م) .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى (مؤتة) [٤٨] في جمادى الأولى سنة ثمان الهجرية (٦٢٩م) زيد بن حارثة الكلبي في سرية مؤلفة من ثلاثة آلاف مجاهد . وكان سبب بعث هذه السرية ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب الى ملك (بُصرى)[٤٩] بكتاب ،

---

(٤٥) حسمى : ارض ببادية الشام ، بينها وبين وادي القرى ليلتان ، وبين وادي القرى والمدينة ست ليال ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٧٦) .
(٤٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة النبي صلى الله عليه وسلم .
(٤٧) طبقات ابن سعد (٢/٨٨) ومغازي الواقدي (٢/٥٥٥ ــ ٥٦٠) .
(٤٨) مؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٩٠) وهي بأدنى البلقاء دون دمشق ، انظر طبقات ابن سعد (٢/١٢٨) ، والبلقاء : هي الاردن الحالية .
(٤٩) بصرى : مدينة من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٠٨) .

فلما نزل مؤتة عرض له شُرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ، ولم يُقتَل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه ، وندب الناس ، فأسرعوا وعسكروا بالجرف [٥٠] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمير الناس زيد بن حارثة ، فان قُتل فجعفر بن أبي طالب ، فان قُتل فعبدالله بن رَواحة ، فان قُتل فليرتَضِ المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم » .

واستشهد القادة الثلاثة بالتعاقب ، واصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فسحب قوات المسلمين من ميدان المعركة ، لانقاذهم من معركة خاسرة تجاه تفوق العدو العَدَدِي والعُدَدِي [٥١] .

وهكذا التقى المسلمون لأول مرة بقوات الغساسنة المتفوقة ، والغساسنة حلفاء الروم الأقربون ، ولقاؤهم كلقاء الروم لا فرق بينهما في شيء . ولم ينتصر المسلمون في هذه المعركة انتصاراً مادياً ، بل انتصروا انتصاراً معنوياً ، فأصبح لديهم خبرة بسكان المنطقة وأساليبهم القتالية وطبيعة أرضهم ، وهذا ما انتفع به المسلمون في معارك الفتوح .

وفي رجب من السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م) كانت غزوة تبوك [٥٢] ، فقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هِرَقل امبراطور الروم قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لَخْم وجُذام وعامِلة وغسان ، وقدموا مقدّماتهم الى البلقاء ، فسار عليه

(٥٠) الجرف : موضع على ثلاثة اميال من المدينة نحو الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٨٦) .
(٥١) طبقات ابن سعد (٢/١٢٨ ــ ١٣٠) ومغازى الواقدي (٢/٧٥٥ ــ ٧٦٩) .
(٥٢) تبوك : موضع بين وادي القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٧٦٥) .

الصلاة والسلام على رأس ثلاثين ألف مجاهد الى تَبُوكَ منهم عشرة آلاف فارس ، وكان الروم قد أكملوا تحشد قواتهم المؤلفة من جنودهم النظاميين ومن القبائل العربية الموالية للروم في تبوك قبل وصـول المسلمين اليهـا ، ولكن المعلومات التي وصلت اليهم عن ضخامة جيش المسلمين ومعنوياتهم العاليـة اضطرت الروم الى الانسحاب من تبوك شمالا • ويبدو أن الروم لم يقدروا خطورة هذه الغزوة وأهميتها ، وحسبوها غارة من غارت البدو التي تنقشع بسرعة دون أن تترك أثراً باقياً وتأثيراً كبيراً ، لذلك انسـحبوا تلافياً لخسائر لا مسوغ لها • أما المسلمون ، فكان انتصـارهم مادياً اذ صالحوا صـاحب (أيلة)[٥٣] ومناطق أخرى من بلاد الشام ، وكان انتصارهم معنوياً ، اذ ارتفعت معنوياتهم ، فكانت هذه الغزوة فاتحة لفتح بلاد الروم[٥٤] •

د ــ وفي هذه الغزوة ، وهي غزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، تخلف ثلاثة من الصحابة دون عذر مشروع ، ولـما عاد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الذين كانوا معه من تبوك الى المدينة المنورة ، اعترف هؤلاء المتخلفون بذنبهم في تخلفهم • ونهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامهم ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم ، حتى تنكرت لهم أنفسهم والارض ، فما هي بالارض التي كانوا يعرفون ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة • وكان أحد المتخلفين الثلاثة وهو كعب بن مالك[٥٥] ، أشـب

(٥٣) أيلة : مدينة على ساحل البحر الاحمر مما يلي الشام ، وهي آخر الحجاز واول الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٩١) .

(٥٤) الرسول القائد (٣٨٧ ــ ٣٩٤) .

(٥٥) كعب بن مالك : انظر سيرته في الاستيعاب (٣/١٣٢٣) واسد الغـابة (٤/٢٤٧) والاصابة (٥/٣٠٨) . والاستبصار في نسب الصحابة مـن الانصار (١٦٠ ــ ١٦٢) .

القوم وأجلدهم، وكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق، ولا يكلمه أحد • قال : « ثم غدوت الى السوق ، فبينما أنا أمشي بالسوق ، واذا نبطي [٥٦] يسأل عني من نبط الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فجعل الناس يشيرون له الي ، حتى جاءني ، فدفع الي كتاباً من ملك غسان وكتب كتاباً في سَرَقةٍ [٥٧] من حرير، فاذا فيه : أما بعد ! فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك • فقلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك ، فعمدت بها الى تنور فسجرته [٥٨] بها » •

وقصة اتصال النبطي بكعب بن مالك ، يدل على أن الغساسنة حلفاء الروم كانوا يترصدون حركات المسلمين وسكناتهم ، وأن مخابرات هؤلاء كانت يقظة أشد اليقظة ، تراقب المسلمين وتعرف تفاصيل أخبارهم، وأنهم كانوا يحاولون انتهاز الفرص لشق الصفوف واثارة الاحقاد والنعرات والاختلافات بين المسلمين •

ولكن المسلمين لم يكونوا يجهلون نشاط الغساسنة المعادي في اقتناص المعلومات عن أحوال المسلمين وعن قوة جبهتهم الداخلية وضعفها ، وعن آمال المسلمين وآلامهم ، فقد كانوا يراقبون هذا النشاط مراقبة دقيقة ، ولديهم

(٥٦) نبطي : نسبة الى النبط ، وهم الانباط . والانباط : شعب سامي ، كانت له دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية ، وعاصمتهم : سلع ، وتعرف اليوم بـ (البتراء) . والانباط : المشتغلون بالزراعة ، واستعمل اخيرا في أخلاط الناس من غير العرب .

(٥٧) سرقة : شقة من الحرير ، ويقال : السرق : احسن الحرير واجوده .

(٥٨) سجرته بها : اي احرقتها ، والهبت بها التنور .

وسائلهم الخاصة في مكافحة المخابرات المعادية من جهة في الداخل ، وتسرب مخابراتهم للحصول على المعلومات عن الروم وحلفائهم من جهة أخرى في الخارج ، فكانوا يحمون أنفسهم من مخابرات العدو داخلياً وخارجيا • ولعل ايمان المسلم الراسخ ـ كما هو الحال في قصة كعب ـ هو المعيل الواقي من محاذير المخابرات المعادية •

ومن الواضح ، أن الغساسنة كانوا يبلغون الروم بالمعلومات التي يحصلون عليها عن المسلمين ، وبخاصة اذا كان لتلك المعلومات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالموقف العسكري الذي يؤثر في مصير الغساسنة والروم [٥٩]•

هـ ـ وتصاعدت الاتصالات بين المسلمين والروم وحلفائهم في السنة السادسة الهجرية (٦٢٧م) ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي [٦٠] الى هرقل امبراطور الروم والى الأسقف الأعظم في الروم ، وبعث شجاع بن وهب الاسدي [٦١] الى الحارث بن شَمِر الغساني ملك الغساسنة في بلاد الشام ، وحاطِب بن أبي بلتعة اللخمي [٦٢] الى المقوقس ملك

(٥٩) لبث المخلفون الثلاثة خمسين ليلة يقاطعهم المسلمون مقاطعة صارمة ويهجرهم أهلوهم حتى زوجاتهم ، ثم تاب الله عليهم ، بعد مانزل بهم ما نزل من عقاب نفسي صارم ، ليتوبوا ولا يعودوا الى التخلف مرة أخرى، فشرط التوبة النصوح الابتعاد عن الذنوب . وقد أنزل الله في التوبة عليهم: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا الا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم) ، التوبة (٩ : ١١٨) .

(٦٠) دحية بن خليفة الكلبي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ٩٠

(٦١) شجاع بن وهب الأسدي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٦٢) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

الاسكندرية وهو قيرس بطريرك الاسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر ، بعثهم يدعو هؤلاء الملوك والرؤساء الى الاسلام ، وكانت بلاد الشام ومصر في حينه ضمن ممتلكات الامبراطورية البيزنطية ، اذ وصل هؤلاء الدعاة أو السفراء في هذه السفارات النبوية في السنة السابعة الهجرية (٦٢٨م) ، وكانت هذه البلاد قد عادت الى الروم بعد اندحار الساسانيين كما سبق ذكره .

وبارسال هؤلاء السفراء الى هؤلاء الملوك ، اتضحت الرؤية بالنسبة للروم وحلفائهم والمسلمين ، فعرف كل طرف منهم ما يريده صاحبه منه ، وما يستطيع أن يتقبله وما لا يستطيع ، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون امبراطور الروم وملك الغساسنة ومقوقس مصر عن كثب ، وعرفوا حقيقة نواياهم تجاه الدين الجديد .

كما عرف امبراطور الروم وملك الغساسنة ومقوقس مصر ما يريد النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فتحقق ما كان يسمعونه بما رأوه عيانا .

وأراد قيصر الروم استقصاء أخبار النبي صلى الله عليه وسلم من أبناء جلدته العرب ، فاستدعى جماعة من تجار العرب ــ كما روى الامام البخاري في صحيحة من حديث ابن عباس رضي الله عنه ــ وكان بين الذين استدعاهم هرقل أبو سفيان بن حرب ، فسأل أبا سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أخباره ، وناقشه في أقواله مناقشة مستفيضة [٦٣] ، وقد كتب هرقل الى النبي صلى الله عليه وسلم جواباً على رسالته ، وبعث بكتابه الجوابي مع

---

(٦٣) التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح (١/٧ ــ ٨) وفتح البارى بشرح البخاري (١/٣٠ ــ ٣٨) ، وانظر البداية والنهاية (٤/٢٦٤ ــ ٢٦٥).

دحية [٦٤] ، ويبدو أن قلب هرقل مال الى الاسلام ، ولكنه خاف من الروم على مصيره ان هو أعلن اسلامه [٦٥] .

أما الحارث بن شَمِر الغساني فلم يسلم ، وأراد أن يسير الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فمنعه هرقل من المسير اليه ، وأمره بالتريث حتى يلقاه بالقدس وشيكا [٦٦] .

وأما المقوقس ، فقد أكرم سفير النبي صلى الله عليه وسلم وأحسن نزله[٦٧] ، وبعث معه هدايا الى النبي صلى الله عليه وسلم [٦٨] .

لقد كان في هذه السفارات كسب معنوي لاشك فيه ، فقد ازداد اطلاع الروم وحلفائهم على الدين الجديد وعلى أخبار المسلمين ، واتجه تفكير الناس في بلاد الروم وبلاد الشام ومصر الى الاسلام والمسلمين . كما ازداد اطلاع المسلمين على نظام الحكم في تلك الاصقاع ، واحوال سكانها ومصدر قوتهم وضعفهم ، وطبيعة أرضهم ، مما كان له أثر في الفتح لا يمكن تجاهله ولا التقليل من قيمته وأهميته .

ونستطيع أن نلخص الموقف العام قبل الفتح الاسلامي للبلاد التي كانت تحكم من الروم ولبلاد الروم الأصلية ، بالنسبة للعلاقة بين العرب والروم قبل الاسلام ، وبالنسبة للعلاقة بين المسلمين والروم بعد الاسلام على عهد النبي

---

(٦٤) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١) .
(٦٥) الطبري (٦٤٩/٢ – ٦٥٠) وابن الأثير (٢١١/٢) .
(٦٦) طبقات ابن سعد (٢٦١/١) ، وانظر ابن الأثير (٢١٣/٢) والبداية والنهاية (٢٦٨/٤) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٣/١) .
(٦٧) فتوح المغرب (٦٧) .
(٦٨) الطبري (٦٤٥/٢) وابن الأثير (٢١١/٢) .

صلى الله عليه وسلم ، بان العرب كانوا على صلة وثيقة بالروم ومعرفة تامة بأحوالهم ، وكان نشاطا الجانبين معروفين لكل جانب منهما ، فالغساسنة العرب حلفاء الروم المقربون ، والتجارة متبادلة بين الجانبين ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد سافر الى بلاد الشام مرتين في التجارة ، وقد حدثت مناوشات بين المسلمين وحلفاء الروم عدة مرات كان أهمها في سرية مُؤْتَة وفي غزوة تبوك، وكانت مخابرات الروم متغلغلة في المناطق الاسلامية ، ومخابرات المسلمين متغلغلة في بلاد الروم وبخاصة بلاد الشام ، وكانت هناك سفارات نبوية بين المسلمين والروم وحلفائهم لم تثمر نتائج مادية في نشر الاسلام ، بل أثمرت ثمرات معنوية يانعة كما ذكرنا ، وكان هذا الاتصال المستمر تمهيداً للفتح .

٢ ـ فتوح البلاد المحكومة من الروم :

فتح خالد بن الوليد مدينة بُصْرى وهو في طريقه من العراق الى الشام سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤م) ، فكانت بصرى (بُثْرا Bothra) أو (البتراء) أول مدينة فُتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق [٦٩] . وفي هذه السنة انتصر المسلمون على جيش الروم في معركة اليرموك الحاسمة ، وفتحوا دمشق وساحل دمشق وبيسان وطبرية [٧٠] .

وفي سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) فتح المسلمون حمص وبعلبك وقنسرين وحلب وانطاكية وقيسارية وبيسان [٧١] وبيت المقدس [٧٢] ، وبذلك استكمل المسلمون فتح بلاد الشام (سورية ، ولبنان ، والاردن ، وفلسطين) وأصبحت جزءاً من الدولة الاسلامية .

---

(٦٩) ابن الأثير (٢/٤٠٩) .
(٧٠) انظر ابن الأثير (٢/٤٠٠ و ٤٢٧ و ٤٣١) .
(٧١) الطبري (٣/٥٩٩ و ٦٠١ و ٦٠٣ و ٦٠٥) .
(٧٢) الطبري (٣/٦٠٧) وابن الأثير (٢/٤٩٩) .

وفي سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨م) فتح المسلمون الجزيرة [٧٣] كما فتحوا ارمينية في تلك السنة أيضاً وسنة تسع عشرة الهجرية [٧٤] (٦٤٠م) وسنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م) ، وسنة خمس وعشرين الهجرية [٧٥] (٦٤٥م) ، وكان فتحها بالتدريج لوعورة أرضها وبعدها عن قاعدة المسلمين في العراق وسعة مساحتها أيضاً . وفتح المسلمون أذربيجان سنة اثنتين وعشرين الهجرية [٧٦] (٦٤٢م) وصالحها المسلمون نهائياً سنة خمس وعشرين الهجرية [٧٧] (٦٤٥م) ، وبذلك طوّقت بلاد الروم الاصلية من الجنوب ومن الشرق تطويقاً كاملا .

وفي سنة عشرين الهجرية [٧٨] (٦٤٠م) فتح المسلمون مصر عدا الاسكندرية ، وفي سنة احدى وعشرين الهجرية (٦٤١م) فتح المسلمون الاسكندرية [٧٩] ، وتقدم المسلمون نحو ليبيا ففتحوها سنة اثنتين وعشرين (٦٤٢م) وسنة ثلاث وعشرين الهجرية [٨٠] (٦٤٣م) ، وباختصار لم تحل سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٤٩م) حتى كان أكبر قسم من الولايات البيزنطية في شمالي افريقية شمولا بالفتح الاسلامي .

لقد كانت انتصارات المسلمين تبعث على الدهشة حقا [٨١] .

---

(٧٣) الطبري (٥٣/٤) وابن الأثير (٥٣٢/٢) .
(٧٤) الطبري (٥٣/٤) وابن الأثير (٥٣٣/٢) .
(٧٥) ابن الأثير (٨٣/٣) .
(٧٦) الطبري (١٥٣/٤) .
(٧٧) ابن الأثير (٨٣/٣) .
(٧٨) ابن الأثير (٥٦٤/٢) .
(٧٩) البلاذري (٣٠٤) .
(٨٠) ابن الأثير (٢٥/٣) .
(٨١) الامبراطورية البيزنطية (٣٦٠) .

٣ ـ فتح أبي عبيدة بن الجراح (٨٢) :

في سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) بعد فتح حلب ، سار أبو عبيدة من حلب الى أنطاكية ، وقد تحصن بها كثير من الناس من قنسرين وغيرها . ولما فارق حلب لقيه جمع العدو ، فهزمهم وألجأهم الى أنطاكية وحاصرها من جميع نواحيها . ثم ان أهل أنطاكية صالحوه على الجلاء أو الجزية ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم ، فآمن الذين بقوا في المدينة. ولكن أهل أنطاكية نقضوا، فوجه أبو عبيدة اليهم عياض بن غنم(٨٣) وحبيب بن مسلمة (٨٤) ، فأعادا فتحها من جديد .

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين ، فلما فُتحت كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبي عبيدة : « أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعلهم بها مرابطة ، ولا تحبس عنهم العطاء » (٨٥) .

٤ ـ فتح خالد بن الوليد :

في سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) ، وجه أبو عبيدة بن الجراح خالداً وهو بـ (مَنْبِج) الى مَرْعَش ، ففتحها وأجلى أهلها وأخربها كما أنه فتح حصن الحَدَث (٨٦) .

---

(٨٢) أبو عبيدة بن الجراح : انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح الشام ومصر (٥٤/٨١) .
(٨٣) عياض بن غنم : انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة (٤٢٥ ـ ٤٣٥) .
(٨٤) حبيب بن مسلمة : انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب .
(٨٥) ابن الأثير (٤٩٥/٢) .
(٨٦) تاريخ أبي الفدا (١٦٠/١) .

٥ ـ فتح حبيب بن مسلمة :

أمد عمر بن الخطاب رضى الله عنه عياض بن غنم بحبيب بن مسـلمة ، فقدم على عياض بالجزيرة، فقاتل حبيب تحت لواء عياض وفتح شِمْشَاط[٨٧] وملطية عنوةً ، ثم نقض أهلها الصلح ، فلما ولى معاوية الشام وجه اليها حبيب ابن مسلمة أيضاً ، ففتحها عنوة ورتب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها[٨٨] .

وقد جرى فتح شمشاط وملطية سنة سبع عشرة الميلادية (٦٣٨م) .

وارتبكت أمور ارمينية في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان حبيب بن مسلمة يجـاهد في تلك المناطـق ، وكان على الكوفة الوليـد بن عُقْبَة[٨٩] ، فكتب اليه عثمان : « ان معاوية بن أبي سفيان كتب الي يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة ، وقد رأيت أن يمـدهم اخوانهم من أهل الكوفة ، فابعث اليهم رجلا له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه ، والسلام »[٩٠] .

وقام الوليد بن عقبة في الناس وأعلمهم الحال ، وندبهم مع سـلمان بن ربيعة الباهلي ، فانتدب معه ثمانية آلاف ، ومضوا حتى دخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم ، فشنوا الغارات على أرض الروم مع حبيب ، وأصاب الناس ما شاؤوا ، وافتتحوا حصونا كثيرة[٩١] .

---

(٨٧) شمشاط : مدينة في بلاد الروم على شاطىء الفرات ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٣/٥) ، وهي غير سميساط .
(٨٨) ابن الأثير (٥٣٥/٢) .
(٨٩) الوليد بن عقبة بن أبي معيط : انظر سيرته في كتاب قادة فتح العـراق والجزيرة (٤٤٩ ـ ٤٦٨) .
(٩٠) ابن الأثير (٨٣/٣) .
(٩١) ابن الأثير (٨٣/٣ ـ ٨٤) .

وبلغ حبيب بن مسلمة أن بطريق (أرميناقس) [٩٢] وهي بلاد (ملطية) و (سيواس) وقونية وأقصرا وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية واسمه الموريان قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم [٩٣] • وأجمع حبيب على تبييت الروم ، فبيتهم وقتل من وقف له ، وانتصر على الروم ، فعاد ادراجه الى مقره في ارمينية ، وقد جرت هذه المعركة سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥ م) •

٦ ـ فتح سلمان بن ربيعة الباهلي :

فتح سيواس وقونية وأقصرا وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية (البسفور) مع حبيب بن مسلمة ، فقد فتحا هذه المنطقة الشاسعة من بلاد الروم متعاونين على أفضل ما يكون التعاون ، وكان سلمان اليد اليمنى لحبيب في فتحه •

٧ ـ فتح محمد بن مروان بن الحكم :

في سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) ، استعمل عبدالملك بن مروان أخاه محمدا على الجزيرة وارمينية ، فغزا منها وأثخن في العدو ، وهزم الروم ، وقتل وسبى وغلب على البلاد •

وفي سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣م) غزا الروم صيفا ، فبلغ أندولية وعاد منها منتصرا •

وفي سنة خمس وسبعين الهجرية (٦٩٤م) ، غزا الروم صيفا ، فخرجت

(٩٢) ارميناقس : هي بلاد ملطية وسيواس وأقصرا وقونية وما والاها من البلاد، والى خليج القسطنطينية ، انظر ابن الأثير (٣/٨٤) .

(٩٣) ابن خلدون (٢/١٠٠١) وزاد ابن الأثير (٣/٨٤) : ملطية وسيواس وأقصرا ... الخ .

الروم في جمادي الاولى من هذه السنة من قبل مرعش ، فالتقى المسلمون بعمق مرعش بالروم ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فهزمت الروم ، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون •

وفي سنة ست وسبعين الهجرية (٦٩٥م) ، غزا الروم من ناحية ملطية •

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، غزا ارمينية ، فهزمهم ، ولكنهم قتلوا وكيله عليها غدرا بعد أن صالحهم محمد •

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) ، غزا ارمينية ، فصاف فيها وشتى •

وهكذا قضى أكثر سني حكمه للجزيرة وارمينية بالغزو ومصاولة الروم وأهل ارمينية ، فاستعاد فتح ارمينية وشطرا من بلاد الروم •

٨ ـ فتح مسلمة بن عبدالملك :

في سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) ، غزا مسلمة أرض الروم • وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦م) ، غزا الروم فأثخن فيهم بناحية المصيصة ، وفتح حصونا كثيرة منها حصن بولق واخرام وبولس وقمقيم وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم •

وفي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) غزا مسلمة والعباس بن الوليد بن عبدالملك بلاد الروم ، فاصطدم الطرفان فانهزم الروم ، ثم أعادوا الكرة فانهزم المسلمون • ولكن العباس بن الوليد بن عبدالملك ثبت على رأس الساقة ، وقام المسلمون بهجوم مضاد ، فانهزم الروم حتى دخل المسلمون (طوانة) بعد قتال وشتوا فيها • كما فتح مسلمة في هذه السنة حرثومة وثلاثة حصون : حصن قسطنطين وحصن غزالة وحصن الأخرم •

وقد تكرر فتح حصن الاخرم سنة سبع وثمانين وثمان ثمانين الهجريتين، ومن المحتمل أن الروم استعادوه ، فعاد اليه مسلمة وفتحه مرة بعد أخرى •

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، غزا مسلمة والعباس بن الوليد الروم ، ففتحا عمورية وافتتح هرقلة وقمونية •

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩م) ، غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح الحصون الخمسة التي بسورية •

وفي سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠م) ، غزا أرض الروم ، ففتح حصونا ثلاثة ، وجلا أهل سوسنة الى بلاد الروم •

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) ، غزا مسلمة الروم ، فافتتح ماسة وحصن الحديد وغزالة وبرجمة من ناحية ملطية ، وكان مسلمة قد فتح حصن الغزالة سنة ثمان وثمانين الهجرية كما ذكرنا ، والظاهر أن الروم استردوها من المسلمين ، فاستعادها مسلمة ثانية •

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، غزا مسلمة الروم ، فافتتح سندرة ، وهي حصن من حصون الروم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم القسطنطينية ، ومن الغزو مباشرة عاد مسلمة الى الديار المقدسة ، فحج بالناس في هذه السنة •

وفي سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) ، غزا مسلمة الصائفة في بلاد الروم •

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، غزا مسلمة أرض الوضاحية ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح الذي كان من قادة مسلمة المؤوسين • وفيها أيضا غزا برجمة وحصن ابن عوف ، وافتتح أيضا من جديد حصن

الحديد وفتح سرورا ، وشتى بأرض الروم ، وكان مسلمة قد فتح حصن الحديد وبرجمة سنة ثلاث وتسعين الهجرية كما ذكرنا ، والظاهر أن هذين الحصنين انتقضا ، فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية .

وفي هذه السنة بدأ سليمان بن عبدالملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية ، وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) فرض مسلمة الحصار على القسطنطينية ، وبعد قتال عنيف أخفق الحصار وانسحب مسلمة من القسطنطينية سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٧م) ، وتفاصيل الحصار في سيرة مسلمة مفصلة ، ويستطيع أن يتدارسها من يريد في هذا الكتاب : قادة فتح بلاد الروم .

٩ ـ فتح عبدالله بن عبدالملك بن مروان :

في سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، غزا عبدالله بلاد الروم ، ففتح حصن سنان من ناحية المصيصة .

وفي سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) ، غزا عبدالله الروم ، ففتح طُرندة .

وفي سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣م) ، فتح عبدالله المصيصة ، فبناها وبنى حصنها على اساسها القديم ، ووضع بها سكانا من المسلمين ، فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوي البأس والنجدة المعروفين ، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك ، وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن .

ووجه قواته في هذه السنة الى حصن سنان ، ففتحه ، ويبدو أنه فتح هذا الحصن ثانية ، لانه كان قد فتحه سنة اثنتين وثمانين الهجرية كما ذكرنا .

١٠ ـ فتح العباس بن الوليد بن عبدالملك :

في سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) ، فتح العباس بالتعاون مع مسلمة ابن عبدالملك بعض بلاد الروم منها طوانـة .

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، غزا مسلمة بن عبدالملك ومعه العباس أرض الروم ودخلاها جميعا ، ثم تفرقا ، فافتتح العباس (أذرولية) ، ووافق من الروم جمعا فهزمهم ، كما غزا العباس الصائفة من ناحية البَذندون.

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩م) غزا العباس الروم حتى بلغ الأرزن في رواية ، وحتى بلغ سورية في رواية أخرى ، والثانية أصح ، لأن ذلك يجمعـه بقوات مسلمة .

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) ، غزا العبـاس أرض الروم ، ففتح سمسطية (سبيطلة = سبسطية) ، والظاهر أنها مدينة سميساط . كما فتح في هذه السنة المرزبانين في منطقة طرسوس ، وفتح طولس (طرسوس) .

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، فتح العباس مدينة أنطاكية كما فتح قارطة .

والمعروف أن أنطاكية فتحها أبو عبيدة بن الجراح لأول مرة سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) كما ذكرنا ، ولكن الروم استعادوها لنشوب الاضطرابات الداخلية واضطراب أمور المسلمين ، فأعاد العباس فتحها من جديد .

وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م) ، غزا العباس بلاد الروم ، ففتح طولس (طرسوس) والمرزبانين وهِرَقلة .

وقد تكرر فتح طولس والمرزبانين مرتين : مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية،

ومرة سنة خمس وتسعين الهجرية ، ولعل سبب ذلك هو في اختلاف المؤرخين بالتوقيت ، والاختلاف في هذه الحالة على كل حال طفيف •

وقد يكون سببه ، ان العباس فتحهما مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، فانتقضتا ، فأعاد فتحهما من جديد سنة خمس وتسعين الهجرية •

أما هرقلة ، فقد فتحها مسلمة بن عبدالملك سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، فمن المحتمل أن الروم استعادوها من المسلمين ، فجدد فتحها العباس، وأعادها كرة أخرى الى حوزة المسلمين •

وفي سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١م) ، غزا العباس أرض الروم ، ففتح مدينة (رَسْلَة) أو (دلسة) أو (أواسي) •

١١ ـ فتح عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك :

في سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، غزا عبدالعزيز بلاد الروم ، فبلغ حصن غزالة في هذه الغزوة وفتحها •

ومن المعروف أن هذا الحصن كان قد فتحه مَسْلَمَة بن عبدالملك سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) ، مما يدل على أن الروم استعادوه من المسلمين بعد فتحه ، فأعاده عبدالعزيز الى سيطرة المسلمين مرة أخرى •

١٢ ـ فتح داؤود بن سليمان بن عبدالملك :

في سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، جهز سليمان بن عبدالملك الجيوش لفتح القسطنطينية ، واستعمل ابنه داؤود على الصائفة ، فافتتح حصن المرأة •

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) ، غزا داؤود أرض الروم ، ففتح حصن المرأة ثانية ، كما فتح حصن الأجرب •

وقد تكرر فتح حصن المرأة في هذه السنة ، وسبق ذكره في فتوح سنة سبع وتسعين الهجرية ، مما يدل على أن الروم استعادوه في شتاء سنة سبع وتسعين الهجرية ، لقلة المدافعين عنه من المسلمين على ما نرجحه .

وكان فتح هذين الحصنين في هذه السنة ، لتأمين خطوط مواصلات الجيوش الاسلامية الزاحفة لفتح القسطنطينية ، لأنها الشريان الرئيس لتقدم تلك الجيوش نحو هدفها ، وهي التي تصل قواعد المسلمين الأمامية بالقسطنطينية ، وعليها تتحرك الامدادات البشرية والادارية من تلك القواعد الى الجيوش الزاحفة ، وكل قائد لابد له من تأمين خطوط مواصلاته بالربايا في المناطق الجبلية والحصون .

وقد كان داؤود بأمرة عمه مسلمة قائدا مرؤسا في ملحمة حصار القسطنطينية ، والظاهر أنه استعاد فتح حصن المرأة وفتح حصن الأجرب ، وهو في طريقه الى القسطنطينية ، اذ كان يومئذ قائدا لأحد الأرتال المتقدمة لفتح عاصمة الروم . وبقي داؤود مع عمه من صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) حتى تم انسحاب مسلمة عن حصار القسطنطينية بعد وفاة سليمان ابن عبدالملك سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٧م) ، بعد أن بقي المسلمون يحاصرون القسطنطينية ثلاثين شهرا .

١٣ - فتح معاوية بن هشام بن عبدالملك :

في سنة تسع ومئة الهجرية (٧٢٧م) ، غزا معاوية أرض الروم ، ففتح حصنا يقال له : حصن طيبة ، وأصيب معه قوم من أهل أنطاكية بخسائر في الأرواح .

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨م) ، غزا معاوية أرض الروم ، ففتح حصنين كبيرين من حصونهم : حصن صِمَلَّة والبوة . وصملة هذه هي

صِمالو التي تقع قرب المصيصة وطرسوس •

وفي سنة احدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م) ، غزا معاوية أرض الروم على الصائفة اليسرى ، وغزا أخوه سعيد بن هشام بن عبدالملك أرض الروم على الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية ، فوغل معاوية في بلاد الروم ، وانصرف ولم يلق كيدا •

وفي سنة اثنتى عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م) ، غزا معاوية بلاد الروم ، فافتتح خَرَشَنَة من ناحية ملطية وحرق فرندية من ناحية ملطية أيضا •

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١م) ، غزا معاوية بلاد الروم ، فرابط في ناحية مرعش ثم رجع •

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢م) ، غزا معاوية أرض الروم على الصائفة اليسرى ، وغزا أخوه سليمان بن هشام أرض الروم على الصائفة اليمنى مما يلي الجزيرة ، فأصاب معاوية ربض أقرن ، وبلغ سليمان قيسارية • والظاهر أن أقرن تقع في ناحية ملطية ، استنادا الى اتجاه الصوائف اليسرى وسير الحوادث •

وفي سنة خمس عشرة الهجرية (٧٣٣م) ، غزا معاوية الروم على الصائفة حتى أتى على أفلاغونيا ، وجرت هذه الغزوة في شهر رمضان ، وافتتح حصوناه

وفي سنة ست عشرة ومئة الهجرية (٧٣٤م) ، غزا معاوية بلاد الروم على الصائفة ، كما غزا سنة سبع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٥م) ، فبلغ في غزوته سيبرة وبلغت سراياه سردة •

وفي سنة ثماني عشرة ومئة الهجرية (٧٣٦م) ، غزا معاوية وأخوه سليمان أرض الروم •

١٤ ـ فتح مروان بن محمد بن مروان :

في سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤م) في خلافة هشام بن عبدالملك بن مروان ، تولى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أول قيادة عسكرية له ، وكان عمره يومئذ ثلاثين سنة .

فقد تولى الصائفة اليمنى ، فافتتح قونية من أرض الروم وكمخ التي تعد من أرض الجزيرة .

وكان مروان مع مسلمة بن عبدالملك من سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥م) حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣١م) في جهاده الذي امتد من الجزيرة الى بلاد الروم وأذربيجان وارمينية ، فعزل هشام بن عبدالملك أخاه مسلمة ، وولى مروان بن محمد على الجزيرة وأذربيجان وارمينية ، فكان نشاط مروان في الفتوح منصبا على ارمينية ، وبقى في قيادته مجاهدا حتى سنة احدى وعشرين ومئة ، ونشاطه في هذا الميدان في سجل فتح ارمينية نشاط متميز مرموق .

١٥ ـ فتح محمد الفاتح :

فتح محمد مدينة القسطنطينية عاصمة الروم ، وكانت خطة الفتح وتنفيذها وتوقيت عمليات الفتح ونتائج الفتح مهمة جدا ولاتزال وستبقى كذلك ، ولايمكن اختصار تلك الأعمال المجيدة بسطور أو كلمات ، فلابد من الرجوع اليها في كتاب : قادة فتح الروم ، لاستيعاب تفاصيلها كما ينبغي في سيرة : محمد الفاتح ، الذي كان آخر قادة فتح بلاد الروم تسلسلا ، وأهمهم انجازا وفتحا ، وحسبه أن يقال عنه : انه فاتح القسطنطينية ، وكفاه بذلك فخرا وذكرا .

ولم يقتصر فتح محمد الفاتح على القسطنطينية على أهميته ، بل شمل فتوحات كثيرة في آسيا الصغرى ، وفي أوروبا ، مما تجد تفاصيله في فتوح هذا القائد العظيم الذي أصبحت فتوحاته معروفة ومقدرة ليس على النطاق الاسلامي وحده ، بل على النطاق العالمي أيضا .

عبرة الفتح

استهان الروم بالعرب بعامة وعرب الجزيرة العربية بخاصة ، قبل الاسلام، وبعد الاسلام . واذا كان هناك ما يسوغ لهم هذه الاستهانة بالعرب قبل الاسلام ، لتفرّقهم وتناحرهم وضعف قوتهم وانصرافهم الى المنافع الشخصية المادية والمعنوية بحدود المكاسب الفردية لغاية نطاق العشيرة أو القبيلة ، دون أن يكون للمصلحة العربية العامة أهمية تذكر في ميزان العربي قبل الاسلام. كما أن العرب كانوا يؤمنون بعقائد شتى ، وكانوا في سوادهم الأعظم مشركين ، فكانت تلك العقائد المتخلفة تفرق ولا توحد ، وتهدم ولاتبنى ، وتؤخر ولاتقدم ، وتثير بين معتنقيها العداوة والبغضاء والحقد والتناحر ، ولعل : « أيام العرب في الجاهلية »[٩٤] في حرب البسوس وداحس والغبراء وغيرهما ، تحكى قصة الاقتتال المستمر بين الأشقاء العرب لأسباب تافهة ، فكان بأسهم بينهم شديدا ، حتى قال قائلهم :

---

(٩٤) انظر كتاب : أيام العرب في الجاهلية ـ محمد احمد جاد المولى بالاشتراك ـ القاهرة ـ ١٩٤٢ ، فقد سجل التاريخ للعرب (٨١) اقتتالا في مدة قصيرة ، وما لم يسجله أكثر عددا . والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفة والغضب والأنفة ، انظر فجر الاسلام (٨٦/١). والجاهلية : زمان الفترة بين رسولين . والجاهلية: ما كان عليه العرب من الجهالة والضلالة قبل الاسلام ، انظر معجمات اللغة .

ومَن تـكن الحضـارة أعجبتـهُ
فـأي رجـال بـادية تَرانـا

ومَن ربـط الجحـاش فأن فينـا
قَناً سُـلباً [٩٥] وأفراساً حِسـانا

وكُـنّ اذا أغَرْنَ على قَبيـل
فأعوزهُنّ نهـب حيث كانـا[٩٦]

أغَرْنَ على الضِّبـاب على حلالٍ
وضَبَّةَ انّه مَن حـان حانـا[٩٧]

وأحيانـاً عـلى بَـكرٍ أخينـا
اذا مـالم نجـد الا أخانـا[٩٨]

هؤلاء هم عرب الجزيرة العربية ، أنفسهم عليهم لا على أعدائهم ، فهي أشد ضررا عليهم لانهـا أعدى أعدائهم ، فلا وزن لهم في موازين القـوى المتصارعة .

أما عرب العراق ، فحلفاء الفرس ، وهم المناذرة ، وأما عرب بلاد الشام ، فحلفاء الروم ، وهم الغساسنة ، وكثيرا ما نشبت الحرب بين الغساسنة والمناذرة لا لمصلحة العرب ، بل لمصلحة الفرس أو الروم ، أما المصلحة العربية فغـائبة

(٩٥) قنا : جمع قناة ، والقناة : الرمح الأجوف . وسلباً : اي طوال .
(٩٦) القبيل : الجمع من الناس .
(٩٧) الضباب : اسم قبيلة . والحلال : المجاور ، يقال : حيحلال : اي مجاور مقيم بالقرب منه . يقول : اغرن على الحي المجاور لحيهم من قبيلتي ضباب وضبة . وقوله : من حان حانا : اي من جاء أجله فهو لابد هالك .
(٩٨) الشعر للقطامي الشاعر ، وهو شاعر جاهلي مشهور .

عن الميدان . أما عرب الجزيرة ، فهم تارة مع الفرس ، وتارة مع الروم ، ولم تقم لهم دولة بعد دولة الحضر التي قضى عليها سابور الاول (٢٤١م — ٢٧٢م)، ومن يومها كانوا مع القوي الذي استولى على بلادهم ، على الضعيف الذي غادر بلادهم ، وكانوا يكدون ليدفعوا الضرائب الفادحة للحكام ، ويعانون الاضطهاد الديني حتى من أبناء دينهم الروم ، لاختلاف المذاهب وما يجره اختلافها من ويلات .

وعرب الهلال الخصيب قبل الاسلام : العراق ، وبلاد الشام ، والجزيرة ، لا وزن لهم في موازين القوى المتصارعة ، لأنهم يعملون لمصلحة الفرس والروم لا لمصلحتهم ، فطاقاتهم مسخرة للأجنبي لا للعرب .

وجاء الاسلام ، فوحد عقائد العرب المتناقضة في عقيدة واحدة هي : الاسلام ، بعد أن ألغى تلك العقائد الفاسدة ، ووحد صفوفهم وألف بين قلوبهم وغرس فيهم روح الضبط والطاعة والنظام ، وطهر نفوسهم ، ونقى أرواحهم ، وخلق فيهم انسجاماً مادياً ومعنوياً ، وعلمهم التضحية من أجل المبادىء لا من أجل الأهواء ومن أجل المصلحة العامة للمسلمين لا من أجل المصلحة الشخصية للأفراد أو الجماعات ، فأصبحت لذلك كله وبذلك كله قوتهم المبعثرة وجهودهم المضاعة ، تعمل بنظام واحد ، وطاعة عالية ، بقيادة واحدة ، لهدف واحد ، وبذلك أصبح العرب قوة منظمة هائلة ، وجدت لها متنفساً في توحيد الجزيرة العربية أولا ، وفي الفتح الاسلامي ثانيا ، وأصبح العرب بعد الاسلام ، غير العرب قبل الاسلام قوة واقتداراً ومثلاً عليا .

ولكن الروم استهانوا بالعرب بعد الاسلام ، كما استهانوا بهم قبل الاسلام ، ولم يكتشفوا أثر الاسلام في العرب بالرغم من النذر المباشرة التي كشفها العرب المسلمون للروم وحلفائهم من الغساسنة والقبائل العربية الاخرى

على عهد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، فكانت تلك الاستهانة التي لا مسوغ لها هي الخطأ السوقي العظيم الذي وقع فيه الروم والذي لم يستطيعوا تلافيه ولا اصلاحه أبدا ، وأدى فيما أدى اليه الى فتح المسلمين لممتلكات الروم خارج بلادهم الأصلية ، وفتح جزء من بلادهم أيضا .

لقد كانت السرايا التي بعثها النبي صلى الله عليه وسلم للتعرض بحلفاء الروم من القبائل العربية على تخوم بلاد الشام الجنوبية ، انذاراً مباشراً للروم بصحوة العرب بعد الاسلام ، تلك السرايا التي كانت قبل سرية مؤتة مباشرة كما هو معروف .

والى جانب تبليغ الدعوة الاسلامية الى قادة العالم المعروفين في حينه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان قائداً لا يغض الطرف عن أي مظهر عدواني يحط من شأن دعوته أويعمل على النيل منها ، فلم يسكت ازاء استشهاد رسوله الحارث بن عُمَيْر الازدي[٩٩] الذي بعثه الى ملك الغساسنة في بصرى ، فأرسل في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩م) أحد قادته المقربين اليه ، وهو زيد بن حارثة الكلبي ، على رأس سرية تعدادها ثلاثة آلاف مجاهد الى الحدود الشمالية الغربية من بلاد العرب . وهناك عند مؤتة الواقعة على حدود البلقاء الى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت ، التقى المسلمون بقوات الروم .

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها سرية مؤتة ، الا أن نتائجها وآثارها كانت

---

(٩٩) الحارث بن عمير الأزدي : انظر سيرته في الاستيعاب (٢٩٧/١) وأسد الغابة (٣٤١/١) والاصابة (٢٩٩/١) .

بعيدة المدى ، فبينما رأى الروم في تلك السرية غارة من الغارات التي اعتاد البدو على شنها للنهب والسلب ، كانت سرية زيد هذه في الحقيقة معركة من نوع جديد لم تقدر دولة الروم أهميتها ، فهي حرب منظمة كانت لهـا مهمة خاصة ، جعلت العرب المسلمين يتطلعون جدياً لفتح بلاد الشام •

وفي السنة التالية ، أي في السنة التاسعة الهجرية (٩٣٠م) ، قاد النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة تبوك ، فأظهر قوة المسلمين للروم وحلفائهم بخاصة ، وللمشركين وغير المسلمين من أهل الكتاب بعامة ، ثم عاد أدراجه الى المدينة المنورة •

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢م) ، أعد النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً بقيادة أسامة بن زيد[١٠٠] المهاجمةالروم، غير أنالنبي صلىالله عليه وسلم التحق بالرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول من تلك السنة (كانون أول ـ ديسمبر ـ ٦٣٢م) قبل حركة جيش أسامة الى هدفه ، فترك لخلفائه خطة واضحة المعالم ، وولى وجوههم شطر هدف عينه لهم••• وهكذا وقف الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بثاقب نظرة على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوىء دعوتـه انما موطنها أرض الشـام حيث الـروم وحلفاؤهم الغساسنة ، وقد أثبتت حوادث الفتح الاسـلامي في أرض الروم صدق هذه الاشارة ، فكان الروم أشد المحاربين عنادا •

ولكن الروم بقدر اهتمـام العرب المسلمين بهم ، واعداد العـدة لهم ، واستكمال الاستحضارات لقتالهم ، كانوا لايزالون يتصورون أنه لا فرق بين

---

(١٠٠) انظر ترجمته المفصلة في كتاب : قادة فتح الشام ومصر (٣٣ ـ ٥١) .

العرب قبل الاسلام وبين العرب بعد الاسلام ، وأن الحرب التي يشنها العرب المسلمون كالحرب التي كان يشنها العرب قبل الاسلام ، فالحرب العربية غارات تلتهب بسرعة وتخمد بسرعة دون أن تترك أثراً ولا تأثيرا ، فكانت استهانة الروم بالعرب بقدر اهتمام العرب بالروم والاستعداد الكامل المفصل لحربهم .

ويبدو أن من أسباب استهانة الروم بالعرب ، خروج الروم من الحرب البيزنطية الفارسية (٦١٠م ــ ٦٢٨م) منتصرين على الفرس ، وبذلك أصبحوا أقوى دول العالم في حينه ، فَمَنْ يكون العرب الضعفاء الى جانب الروم الأقوياء ! كما أن النصر ــ وبخاصة في حرب طويلة الأمد ــ على دولة قوية كالامبراطورية الساسانية ، يؤدي الى الغرور الذي من نتائجه الاستهانة بالأعداء ، ويؤدي الى الاسترخاء للتمتع بثمرات النصر اليانعة .

والحق أن العرب غير المسلمين ، استهولوا قتال الروم ، فقال قائلهم وهم يشيرون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق الى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : « أتَحْسَبون جِلادَ بني الأصفر (أي الروم) كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال » ، ارجافاً وترهيباً للمؤمنين (١٠١) ، فما كان هؤلاء العرب الذين لم يسلموا يصدّقون بأن العرب المسلمين قادرون على حرب الروم ، ولكن العرب المسلمين كانوا واثقين بنصر الله ، فاذا كان العرب أنفسهم يستهينون ببعضهم الى هذا الحد ، فلا لوم على الروم في استهانتهم بالعرب أيضا .

والدرس الاول الذي تتعلمه ، هو أن الاستهانة بالعدو ، تؤدى الى أوخم

---

(١٠١) سيرة ابن هشام (٤/١٨٠) .

العواقب ، وأن القوى مهما يبلغ من القوة ، لا عذر له في الاستهانة بالضعيف مهما يبلغ من الضعف ، والحكمة كل الحكمة في المثل العربي القديم : « اذا كان عدوك نملة ، فلا تنم له » .

وكان الأجدر بالروم وحلفائهم ألا يستهينوا بالعرب المسلمين وأن يتدبروا أثر الاسلام في العرب بجدية وحزم ، ويعدوا للعرب المسلمين ويستعدوا لهم من بعد سرية حسمى بقيادة زيد بن حارثة الكلبي التي كانت في شهر جمادى الآخرة من سنة ست الهجرية ، حيث انكشفت نيات العرب المسلمين في تصديهم للروم وحلفائهم العرب غير المسلمين ، أو بعد السفارة النبوية الى ملك الغساسنة وامبراطور الروم هرقل التي كانت في أواخر السنة السادسة الهجرية وأوائل السنة السابعة ، لأن تعاليم الاسلام في الجهاد : الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال ، قد انكشفت أيضاً . الا أن الروم لم يعدوا ويستعدوا للمسلمين من العرب الا في سنة ثلاث عشرة الهجرية قبيل معركة اليرموك الحاسمة ، فخسروا خمس سنوات في سبات وغفلة ، وكان العرب المسلمون سنة ثلاث عشرة الهجرية غير العرب المسلمين سنة ست الهجرية ، اذ اصبحوا أكثر عدداً وعُدَداً او أقوى ساعداً ومددا ، وأكثر خبرة ورشدا ، وكان القطار بعد يقظة الروم من اغفاءتهم الطويلة قد فاتهم الى غير رجعة .

ومن تجارب الأمم المفيدة التي استخلصتها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً ، أن الاستهانة بالعدو تؤدي الى الاندحار في الحرب ، وان في تقدير الموقف للقضايا المصيرية ـ ومنها الحرب ـ يجب أن يضع أسوأ الاحتمالات في الحسبان ، فاذا كان هناك خطر يتهدد الأمة في مصيرها بمعدل واحد بالمئة ، فلابد من اعتبار ذلك الخطر مئة بالمئة ، والاعداد والاستعداد بالنسبة لمئة بالمئة

لدرء هذا الخطر ، اذ لا ضرر من المبالغة بالحذر واليقظة ، وانما الضرر بالغفلة والاسترخاء .

والدرس الثاني الذي نتعلمه ، هو أن الاختلافات المذهبية في الدين الواحد ، قد تجر الى عواقب وخيمة تضر بحاضر الأمة ومستقبلها وتفرق وحدة البلاد .

لقد كان من الطبيعي جداً أن يودي دخول الفرس الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة ، الى اضطهاد أبناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالقسطنطينية وتمسكهم بعقائدها ، كما كان طبيعياً أن يؤدي ذلك الى تنشيط اليعاقبة وكل من قال بالطبيعة الواحدة . والواقع أنه لما عاد الروم الى هذه الأقطار ، وجدوا أن جميع بطاركتها هم من أتباع الطبيعة الواحدة ، فعادوا الى معالجة الانشقاق في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف (١٠٢) ، وكان الامبراطور وأهل دولته يقولون : ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، أما رعيته في مصر والشام والجزيرة ، فكان أكثرهم يقول بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة ، ولتوحيد الكلمة وجمع الصفوف وافق هرقل بالقول : بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ، لغرض التوفيق بين المسيحيين من رعايا الروم . ونشر الامبراطور منشوراً بهذا المعتقد ، فقبل به أكثر الأساقفة الشرقيين الا بطريرك القدس وغيره ، فشق ذلك على الامبراطور ، وعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم . وأصبح الانقسام مزدوجاً : الامبراطور ومن والاه في ناحية ، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل حوران وسائر أهل سورية ومصر في ناحية ، والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة في ناحية ثالثة ، فضلا عن طوائف أخرى منهم الخياليون

---

(١٠٢) الروم (١/٢٣٠ — ٢٣١) .

الذين يقولون بأن المسيح لم يُصلب حقيقة ، وانما صلب رجل آخر مكانه ، ومنهم القائلون بعدم الخضوع للرؤساء ، ثم ان اليعاقبة أيضاً كانوا أقساماً مما يطول شرحه .

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة ، لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى آل الأمر أحياناً الى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم الى حوزة الفُرس ، كما حصل بالارمن ، فانه لما حرم المجمع القسطنطيني القول بالطبيعة الواحدة ، جعل الامبراطور يشدد النكير على متبعيها والأرمن منهم ، فأفضت بهم الحال الى تسليم بلادهم الى الفُرس . وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له في فتحها [١٠٣] ، لأنهم كانوا على الروم مذهبياً ، كما لم يقاتل أهل الجزيرة دفاعاً عن بلادهم كما ينبغي ، ولم يسندوا الروم بقوة وأمانة كما يجب ، « فكانت الجزيرة أسهل البلاد فتحاً » [١٠٤] ، لأنهم كانوا على الروم مذهبياً أيضا .

ولكن التناقض المذهبي كان سبباً واحداً من أسباب فتح أرض الشام ومصر والجزيرة ، فهناك أسباب كثيرة لهذا الفتح ، لعل أهمها : الحرب العادلة التي خاضها المسلمون حينذاك ، فلا ظلم ولا عدوان ولا انتهاك للأعراض ، ولا انتهاب للأموال ، بعكس الروم الذين كانوا يظلمون ويعتدون وينتهكون الأعراض وينتهبون الأموال . ومن أسبابها العدل الذي أشاعه المسلمون في البلاد المفتوحة ، والتسامح الذي لمسه أهل تلك البلاد ، والمُثل العليا التي كان المسلمون نماذج حية لها تمشي على الأرض : « وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي ، وقد ترك العربُ الناسَ أحراراً في أمور دينهم ، وأظل

(١٠٣) التمدن الاسلامي (١/٤٢) ـ جرجى زيدان ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٩١٤ .
(١٠٤) الطبري (٤/٥٤) وابن الأثير (٢/٥٣٢) .

العربُ أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم ، فنال هؤلاء مالم يعرفوه سابقاً من الـدعة والطمأنينة »[١٠٥] ، « من ذلك أن عمر بن الخطـاب لما دخـل القدس ، أبدى من التسامح نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعرفهم وعاداتهم ، ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة في مقابـل حمايتهم »[١٠٦] ، « وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله في فتوح الأمم الأخرى ، ذلك أن العرب انشأوا بسرعة فائقة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا بحسن سياستهم من اقناع أمم كثيرة على اعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود والفُرس الذين رضوا أيضاً بمعتقدات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم »[١٠٧] . « والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب »[١٠٨] ، وقد ذكرت شهادة غير عربي ولا مسلم ، لأن فضل العرب المسلمين في هذا المجـال كان واضحاً معروفاً لا يخفى على صديقٍ وغير صديق فلا يمكن اخفاء الشمس في وضح النهار .

وقد ذاع خبر العدل والتسامح والمُثُل الاسلامية العُليا التي يتحلى بها المسلمون في حربهم وسلامهم ، فسهلت تلك الأخبار الطيبة على المسلمين مهمة الفتح، وجعلت كفتهم ترجح على كفة الروم في ميزان الحق والعدل والانصاف.

لقد انتصر العرب المسلمون الأولون بسـمعتهم الحسـنة في العـدل

---

(١٠٥) حضارة العرب ـ كوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص (١٦٩) .

(١٠٦) حضارة العرب (١٦٨) .

(١٠٧) حضارة العرب (١٥٣) .

(١٠٨) حضارة العرب (٢٢٥ ـ ٢٣٥) ، وانظر فصل : الفتوح الاسلامية ومعاملة العرب للأمم المغلوبة من كتاب : أصالة الحضارة العربية (٢٤٠ ـ ٢٤٣) ـ الدكتور ناجي معروف ـ بيروت ـ ١٣٩٥هـ ـ ط ٣ .

والتسامح ومكارم الأخلاق على الروم والفرس وحلفائهم ، أكثر من انتصارهم بالقوة الضاربة ، والمثل العليا تبقى ، والقوة الضاربة لا تبقى .

واذا كنا قد تعلمنا من الروم درساً حيوياً يبرز محاذير التناحر المذهبي وأثرها المدمر في حاضر الأمة ومستقبلها ، فعلينا أن نتعلم من أجدادنا العرب المسلمين في الصدر الأول من أيام الفتح الاسلامي ، أنهم انتصروا بالجهاد الذي هو الحرب العادلة لتكون كلمة الله هي العليا ، ان (الفتح) سيف وكتاب ، والسيف يتبدد أثره ، والكتاب لا يتبدد أثره أبدا ، والفرق بين الفتح وبين الاستيلاء أو السيطرة ، هو أن الفتح قتال ومبادىء ، وغيره قتال بدون مبادىء ، وكل فتح تحرير ، ولكن ليس كل تحرير فتحاً ، فقد يكون التحرير بالقوة وحدها دون مبادىء ، وحين عاد النبي صلى الله عليه وسلم الى مكة المكرمة وهي بلده الأمين منتصراً ، سميت عودته : فتح مكة ، وسماها الله في كتابه العزيز فتحاً ، فقال : (انا فتحنا لك فتحاً مبينا)(١٠٩) ، وفي القرآن الكريم سورة الفتح ، وقد وردت مادة (فَتَحَ) في الكتاب العزيز بنحو ثمان وثلاثين آية ، منها سبع عشرة آية في معنى (الفتح) (١١٠) الذي هو الجهاد لاعلاء كلمة الله بالاقناع لا بالاكراه ، وبالحكمة والموعظة الحسنة لا بالتعسف والعنف ، اذ (لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي) (١١١) .

وقد كنت أعلم أن المسلمين تركوا الجهاد فذلوا ، وما كنت أعلم أنهم يريدون ترك حتى لفظة الجهاد وما يتبعها من كلمات ذات معانٍ اسلامية خاصة كالفتح، بحجة أن الجهاد يحمل معنى الاعتداء وأن الفتح يحمل معنى الاستيلاء،

---

(١٠٩) الآية الكريمة في سورة الفتح (٤٨ : ١) .

(١١٠) انظر التفاصيل في : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٥١٠ — ٥١١) — القاهرة — ١٣٧٨ هـ .

(١١١) الآية الكريمة في سورة البقرة (٢/٢٥٦) .

والجهاد والفتح لا يحملان مثل هذين المعنيين الا في فكر أعداء الاسلام وحدهم، وما معنى التحرير الا نقطة في بحر معاني الفتح، فلا ينبغي أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خـير .

ولما ترك المسلمون فرض الجهاد ، ضعفوا وذلوا واستهانت بهم الأمم ، وتفرقت كلمتهم وتشتت شملهم ، وأخذوا يقتتلون فيما بينهم ، ونسوا أعداءهم الحقيقيين وشغلوا باخوانهم وأشقائهم ، حتى هانوا على أعدائهم ، وخسروا ما فتحوه بالتدريج .

لقد استعاد نقفور امبراطور الروم (نيقيفوريوس فوقاس ٩٦٣م — ٩٦٩م) المصيصة وطرسوس من المسلمين سنة أربع وخمسين وثلاثمائة الهجرية [١١٢] (٩٦٥م) ، فذكر ياقوت الحموي في كتابه : (معجم البلدان) وصفاً لاحتلال نقفور لمدينة طرسوس فقال : « .... فان نقفور ملك الروم اسـتولى على الثغور ، فاستولى على المصيصة ثم رحل عنها ونزل على طرسوس ، وكان بها من قِبَل سيف الدولة رجل يقال له : ابن الزيات ورشـيق النسيمي مولاه ، فسلما اليه المدينة على الأمان والصلح على أن مَنْ خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يعترض من عين ووَرِق أو خرثي [١١٣] ، ومالم يطق حمله فهو لهم مع الدور والضياع . واشترط تخريب الجامع والمساجد ، وأنه من أراد المقام في البلد على الذمة وأداء الجزية فعل ، وان تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته .... وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام وتفرقوا فيها ، وملك نقفور البلد ، فأحرق المصاحف وخرب المساجد ، وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جُمع من أيام بني أُمَيَّة الى هذه

(١١٢) ابن الأثير (٨/٥٦٠) .
(١١٣) الخرثي : أثاث البيت .

الغاية .... ودخل الروم الى طرسوس ، فأخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ، ثم يتوكل ببابها ، ولا يطلق لصاحبها الا حمل الخِف (١١٤) ، فان تجاوز منعه ، حتى اذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على ما فيها .... هذا والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض (يريد فرض الجهاد) ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده »(١١٥) ، وهكذا أصبح الطالب مطلوباً والسيد عبداً والعزيز ذليلا ، لأن المسلمين تركوا دينهم الذي قادهم الى النصر، والى الوحدة والتوحيد ، وتخلوا عن فريضة الجهاد ، فتداعت عليهم الأمم .

أما في القرن الرابع عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) ، فقد خسر المسلمون ما فتحوه وأصبحت بلادهم مستعمرات للأجنبي ، واقتطع الصهاينة الأرض المقدسة من البلاد العربية .

واستمر العد التنازلي ، حتى كانت سنة اثنتين وأربعمائة وألف الهجرية (١٩٨٢ م) سنة مذابح مخيمات صبرا وشاتيلا في بيروت ومذابح الأشقاء اللبنانيين من المسلمين بأيدي الصهاينة وعملائهم .

أما في سنة ثلاث وأربعمائة وألف الهجرية (١٩٨٣م) ، فقد كانت سنة اقتتال الأشقاء الفلسطينيين مع بعضهم في طرابلس اللبنانية ، مما أثلج قلوب الصهاينة وأعداء العرب والمسلمين .

---

(١١٤) الخف : كل شيء خف محمله .
(١١٥) معجم البلدان (٦/٣٩ ـ ٤٠) .

وحين قرأت ما كتبه ياقوت في معجم البلدان ، قلت لنفسي : « ما أشبه الليلة بالبارحة » .

ان عبرة فتح بلاد الروم يمكن اجمالها في أربعة دروس رئيسة : درسان من الروم ، ودرسان من العرب .

الدرس الأول من الروم ، هو أن الاستهانة بالعدو تقود الى الهزيمة ، ولا عذر بضعف العدو وقلته ، فالفئة القليلة المنظمة المستعدة ، تتغلب على الفئة الكبيرة غير المنظمة وغير المستعدة . والدرس الثاني من الروم هو أن التناحر المذهبي ، يقود الى الاندحار ، لأنه يفتت الأمة ويمحق التعاون فيما بينها في السلم والحرب .

والدرس الأول من المسلمين ، هو العودة الى الجهاد الاسلامي الذي هو الحرب العادلة بما فيها من مُثُل عُليا ووحدة واتحاد ، فما ترك الجهاد قوم الا ذلوا وتفرقوا . والدرس الثاني من المسلمين ، هو اتحادهم ، فما اتحدوا الا انتصروا ، وما تفرقوا الا انخذلوا ، وفوائد الوحدة لا تحتاج الى بيان .

كما تتعلم من هذه الدراسة درسين حيوين آخرين من المسلمين والروم : الأول هو أن الهجوم أنجح وسائل الدفاع ، وهو من الدروس السوقية التي تتعلمها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً بعامة ومن حرب المسلمين على الروم وحرب الروم على المسلمين بخاصة .

فقد شحن المسلمون الثغور بالمجاهدين الذين يرابطون في تلك الثغور للدفاع عنها وصد هجوم الروم عليها شتاءاً وصيفاً . وجعلوا من هذه الثغور

قواعد متقدمة للمسلمين ، ينطلقون منها في الصوائف للهجوم على مدن الروم القريبة أو البعيدة ، بقصد اظهار قوة المسلمين ومنعتهم ويقظتهم ، وتفريق حشود الروم وضربها في عقردارها في حالة تحشدها للتعرض بالبلاد الاسلامية قبل أن تتعرض بالمسلمين ، وبذلك ينقلون ساحة المعارك من بلاد المسلمين الى بلاد الروم ، ويحملون الروم نتائج تلك المعارك ماديا ومعنويا .

وكانت صوائف المسلمين تغزو بلاد الروم سنوياً ، مادام المسلمون أقوياء متحدين ، يتقبلون الجهاد ويقبلون عليه بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والعناء .

أما في حالة ضعف المسلمين وتفرقهم ، فان الروم يغزونهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وكان الأسلوب التعرضي أنجح وسائل الدفاع بالنسبة للمسلمين والروم أيضا .

وقد كانت الثغور آمنة مطمئنة ، حين كانت عامرة بالمجاهدين والمرابطين للدفاع المحلي ، وبالصوائف التي تعبر الحدود سنوياً للدفاع السوقي عن الثغور وعن بلاد المسلمين . ثم أصبحت تلك الثغور غير آمنة ولا مطمئنة بعد أن خلت من المدافعين عنها ، وتقاعس المسلمون عن غزواتهم الصيفية ، فأصبحت مكشوفة للروم ، واستطاعوا احتلال قسم منها ، وفعلوا بأهلها الأفاعيل .

أما الدرس الحيوي الثاني ، فهو أن الروم ، لم يكونوا ضعفاء في أيام الفتح الاسلامي ، ولم يكن جيشهم ضعيفاً ولا قيادتهم ضعيفة ، كما يدعى الأجانب من المؤرخين القدامى والمحدثين .

فقد كان الروم على جانب عظيم من الحضارة كما رأينا ، وكان جيشهم أقوى جيش في العالم ، وحسبه أنه دحر الجيش الساساني وانتصر عليه، حتى هدد عاصمة ملكه ، واستعاد البلاد التي احتلها الفُرس ، وأصبح القوة العالمية التي لا تنافس في حينه • كما كان هرقل امبراطور الروم المنتصر من ألمع قادة الروم وأكثرهم كفاية واقتدارا ، وقد أحرز بانتصاراته الباهرة على الفُرس سمعة في القيادة لا مثيل لها في أباطرة الروم • وهدف الذين يدعون أن الروم كانوا ضعفاء أيام الفتح الاسلامي واضح مفهوم ، فهم يريدون أن يسوغوا هزيمة الروم من ناحية ويهوّنوا من انتصار المسلمين من ناحية أخرى ، ولكن هدف الذين يرددون هذا الادعاء المتهافت غير واضح ولا مفهوم ، الا أن يكون تقليداً لكل أجنبي أو جهلا بالواقع والتاريخ ، أو عمالةً لأعداء العرب والمسلمين ، أو بكل تلك الأسباب مجتمعة كأنها ظلمات بعضها فوق بعض •

لقد انتصر الفاتحون لأنهم كانوا متفوقين على الروم بمعنوياتهم العالية التي غرسها الدين الحنيف في المسلمين الأولين ، وما أصدق خالد بن الوليد في قولته حين سمع رجلا يقول : «ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » ، فأجابه فوراً : « بل ما أقل الروم ! وأكثر المسلمين !! انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان » •

وقد كان المسلمون يومئذ كثيرين بانتصاراتهم الباهرة ، وما أعظمها وأبقاها من انتصارات •

مجمـل الفتـوح

التسلسل	اسم المدينة	اسم القائد	الملحوظات
١	أنطاكية	أبو عبيدة بن الجراح	
٢	مرعش	خالد بن الوليد	
١	شمشاط		
٢	ملطيـة	حبيب بن مسلمة	من سيواس الى خليج القسطنطينية بالتعاون مع سلمان بن ربيعة
٣	سيواس وقونية		
٤	أقصرا حتى خليج القسطنطينية		
١	سيواس		
٢	قونيـة	سلمان بن ربيعة	بالتعاون مع حبيب بن مسلمة
٣	أقصرا حتى خليج القسطنطينية		
١	مرعش	محمد بن مروان بن الحكم	استعادة فتح مناطق هاتين المدينتين
٢	ملطيـة		
١	حصن بولق		
٢	حصن الأخرم		
٣	حصن بولس		
٤	طوانـة		
٥	حرثومة	مسلمة بن عبدالملك بن مروان	
٦	حصن قسطنطين		
٧	حصن غزالـة		
٨	عمورية		
٩	هرقـلة		

التسلسل	اسم المدينة	اسم القائد
١٠	قمونية	
١١	الحصون الخمسة بسورية	
١٢	سوسنة	
١٣	ماسة	
١٤	حصن الحديد	
١٥	برجمة	
١٦	سندرة	
١٧	حصن الوضاح	
١٨	حصن ابن عوف	
١٩	سرورا	
٢٠	حصن الصقالبة	
٢١	حصار القسطنطينية	
١	حصن سنان	
١	طرندة	عبدالله بن عبدالملك بن مروان بن الحكم
٣	المصيصة	
١	طوانة	
٢	اذرولية	
٣	سميساط	
٤	المرزبانين	العباس بن الوليد بن عبدالملك بن مروان فتح طوانة مع مسلمة بن عبدالملك
٥	طرسوس (طولس)	
٦	قارطة	
٧	رسلة = دلسة = اواسى	

التسلسل	اسم المدينة	اسم القائد	
١	حصن غزالة	عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك بن مروان	فتحه مسلمة وأعاد عبدالعزيز فتحه
١	حصن المرأة	داؤود بن سليمان بن عبدالملك بن مروان	بأمرة مسلمة بن عبدالملك
٢	حصن الأجرب		
٣	حصن القسطنطينية		
١	حصن طيبة		
٢	حصن صملة = صمالو		
٣	حصن البوة	معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان	
٤	خرشـنة		
٥	ربض أقرن		
١	قونيـة	مروان بن محمد بن مروان بن الحكم	أعاد فتح هذه المدينة وله فتوح كثيرة في مناطق اخرى ٠
١	القسطنطينية	محمـد الفـاتح	

هرقــل

ملك الروم

٦١٠م ـــ ٦٤١م

تولى هرقل الحكم بعد فوكاس ، فقد بعث هرقل حاكم افريقيــة للروم ابنه هرقل على رأس أسطول بيزنطي الى القسطنطينية ، فتوقفت السفن أثناء سيرها ببعض الجزر والموانىء البيزنطية ، ولقى هرقل الترحيب من جميع الناس. وفي ٣ تشرين الاول (أكتوبر) ٦١٠م ظهر أسطوله أمام أسوار القسطنطينية ، فتعالى الهتاف له ، على أنه مخلص البلاد ومنقذها . فعمل هرقل على التعجيل بانهاء حكم فوكاس . وفي ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ٦١٠م ، تلقى هرقل التاج من يد البطريرك ، ثم أمر باعدام فوكاسِ وتحطيم تمثالــه المقام في ميــدان السباق .

وألف هرقل ومن جاء بعده مباشرة من الأباطرة أسرة حاكمة ترجع ترجيحاً الى أصل أرمني ، وحكم هرقل من سنة ٦١٠م حتى سنة ٦٤١م .

ويعتبر هرقل من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي ، فهو على حد قول أحد المؤرخين ، الذي أنشأ بيزنطة العصور الوسطى ، والذي اتخذ رومة مثالا له في الحكم ، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية ، واتخذ المسيحية ديناً ومذهبا ، وأجرى في داخل الامبراطورية حركة تجديدية ناشطة ، وكانت بيزنطة قــد ادخرت في ذاتها من المواهب والموارد ما أسهمت بها في خلق نهضة اجتماعية سياسية ثقافية عسكرية .

وكان الصقالبة قد استولوا على معظم ممتلكات الامبراطورية ، وأصبح الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، لاسيما داخلها ، اقليماً صقلبياً .

أما الفُرس ، فأخذوا يتوغلون في الشــرق الأدنى منذ ســنة ٦١١م ،

فاستولوا على أنطاكية التي تعتبر من أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية ، ولم يلبثوا أن استولوا على دمشق ، وشقوا طريقهم شمالا فاستولوا على حصن طرسوس وطردوا البيزنطيين من ارمينية • وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت معنوياتهم حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع ، فجعلوا المدينة نهباً للحريق والمذابح ثلاثة أيام ، ودمر الحريق كنيسة القيامة التي شيدها قسطنطين الكبير ، وكان لهذا العمل رد فعل خطير في بيزنطة ، لاسيما أن الصليب المقدس (صليب الصلبون) الذي يعتبره المسيحيون أثمن المقدسات الدينية ، استولى عليه الفرس ونقلوه الى عاصمتهم المدائن •

ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين ، بل امتدت سنة ٦١٢م الى آسيا الصغرى حتى بلغت مضيق البسفور ، وعسكر الفرس تجاه القسطنطينية، وبذلك تعرضت العاصمة لزحف العدو من جهتين : اذ زحف عليها من الشمال الصقالبة والآقار •

وشرع الفرس بغزو مصر ، فسقطت في أيديهم الأسكندرية سنة ٦١٩م ، ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت بأيدي الفرس •

وبدأ هرقل باجراء اصلاحات عسكرية وادارية شاملة ، وكان من تتائج هذه الاصلاحات تغلب الصفة العسكرية على ادارة الامبراطورية ، واعادة تنظيم القوات المسلحة ، وكانت تتائج هذه الاصلاحات واضحة ملموسة ، فنهضت الامبراطورية من جديد ، وهُزم الفرس هزيمة ساحقة منكرة بفضل جهود هرقل التنظيمية وقيادته المتميزة •

كما أن الكنيسة البيزنطية أسهمت بقدر كبير فيما أحرزته الامبراطورية من الفوز والنجاح ، اذ جعلت كل ما لديها من ثروة تحت تصرف الحكومة ، وما كان في كنائس العاصمة والأقاليم من التحف المصنوعة من الذهب والفضة

جرى صهرها وسكها نقودا •

وقرر هرقل أن يقود بنفسه الحرب على الفرس ، وطغى على الحرب في مستهلها جو من الحماسة الدينية التي لم تكن معروفة في العصور الماضية ، فكانت حربا صليبية سابقة على الحروب الصليبية المعروفة •

وفي يوم الاثنين ٣ نيسان (ابريل) سنة ٦٢٢م ، غادر هرقل القائد العام للجيش البيزنطي العاصمة بعد أن أدى القداس ، وعبر البسفور الى آسيا الصغرى حيث لجأ الى جهات الثغور البيزنطية ، فاجتمع له عدد كبير من الجند• وأمضى شهور الصيف في تدريب الجند ، وعكف على دراسة الخطط العسكرية ، فابتكر أساليب جديدة منها ، فازدادت أهمية استخدام الفرسان في القتال ، وأبدى هرقل اهتماما كبيرا بالرماة من الفرسان •

وبدأ هرقل في الخريف حملته ، فشق طريقه الى ارمينية ، وتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرضها ، فانتصر الروم على الفرس هناك انتصارا حاسما ، وبذلك تحقق أول هدف من أهداف هرقل ، وهو تخليص آسيا الصغرى من العدو •

وفي سنة ٦٢٣م سار هرقل الى ارمينية ، فأحرز انتصارات على الفرس هناك ، ثم توجه نحو الجنوب ، فزحف على (جانزاك Ganzak) التي كانت عاصمة لأردشير ــ أول ملوك الساسانيين ــ وتعتبر من المراكز الدينية الرئيسة في فارس ، فلاذ كسرى بالفرار من المدينة التي لم تلبث أن سقطت بيد الروم ، فأشعلوا الحرائق في معبد زرادشت انتقاما لما أنزله الفرس من قبل ببيت المقدس من نهب وتخريب ، ووقع بيد هرقل عدد لاحصر له من الأسرى •

ودارت خلال سنتى ٦٢٤م و ٦٢٥م معارك طاحنة في ارمينية بين الروم والفرس ، كانت الكفة راجحة فيها للروم على الفرس •

وفي سنة ٦٢٦م تعرضت القسطنطينية لهجوم مزدوج من الفرس والآقار، ولكن لم ينجح الهجوم وانتصر الروم في نهاية المعارك •

وفي سنة ٦٢٧م ، شرع هرقل بزحفه الكبير نحو الجنوب متجها الى قلب بلاد الفرس ، وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) من هذه السنة أحرز انتصارا حاسما على الفرس في معركة نينوى الحاسمة التي قررت مصير النزاع بين الفرس والروم نهائيا في مصلحة الروم ، اذ أحرز البيزنطيون انتصارا باهرا على الفرس • وحلت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة وخسائر فادحة •

وواصل هرقل زحفه المظفر ، وفي أول سنة ٦٢٨م استولى على داستاجرد مقر ملك فارس ، فأسرع الملك بالخروج منها ، مما أدى الى عزل كسرى وقتله، فتولى الحكم بعده ابنه ، وعقد الصلح مع هرقل •

وبمقتضى هذا الصلح ، استرد هرقل كل ما كان لبيزنطة من ممتلكات في الجزيرة وارمينية وسورية وفلسطين ومصر ، وأعلن كسرى (شيرويه) أثناء مرضه الذي مات فيه ، بأن يكون هرقل وصيا على ابنه ، وكان سلفه كسرى الثاني قد أعلن أن الامبراطور البيزنطي ليس الا عبدا له ، فتغير الزمن وانعكس الوضع ، فأعلن شيرويه أن ابنه ووريثه في الحكم عبد للامبراطور البيزنطي هرقل ، وهكذا غير هرقل موازين القوى من حال الى حال ، فأصبح المغلوب غالبا ، والعبد سيدا •

وعاد هرقل الى عاصمته ، بعد أن غاب عنها ست سنوات ، فاستقبله ابنه على شواطىء آسيا الصغرى ، واستقبله البطريرك سرجيوس ورجال الدين وأعضاء مجلس الشيوخ وجموع الشعب ، يحملون أغصان الزيتون والشموع الموقدة ، يرتلون المزامير ، ويهتفون باسمه فرحا وسرورا •

ولما تحررت الاقاليم البيزنطية من الفرس، ارتحل هرقل وبصحبته زوجته، سنة ٦٣٠م ، قاصدا بيت المقدس ، حيث أعاد في ٢١ آذار (مارس) سنة ٦٣٠م ،

وفي وسط مظاهر الفرح الغامر ، اقامة الصليب الذي كان قد غنمه الفرس في موضعه ، كما أعاد الى مواضعها كل ما جرى سلبه من الكنيسة ، واعتبر المؤرخون أن هذه الحرب أول حرب مقدسة شنها العالم المسيحي ضد غيرهم من غير المسيحيين •

وتعتبر الحرب الفارسية البيزنطية مرحلة مهمة من مراحل التاريخ البيزنطي والفارسي أيضا ، اذ أن معركة نينوى حطمت قوة الفرس ، ولم يعد لفارس ماكان لها من الأهمية • أما الآقار ، فان كبرياءهم هوت الى الحضيض بفضل ما أحرزه عليهم البيزنطيون من انتصارات في معركة القسطنطينية • وبلغت بيزنطة بما أحرزته من النصر ، ذروة القوة والمجد وذاع اسمها فيما وراء الحدود ، فأرسل ملك الهند الى هرقل يهنئه بالنصر ، وبعث له بهدية حافلة من الأحجار الكريمة ، وأنفذ دابوجرت ملك الفرنجة السفراء لعقد صلح دائم مع الامبراطورية البيزنطية ، وأرسلت بوران ملكة فارس مبعوثا خاصا الى هرقل ليبرم معاهدة الصلح •

ويعتبر عهد هرقل نقطة تحول في تاريخ الدولة البيزنطية من النواحي الحضارية والسياسية والعسكرية ، اذ انتهت المرحلة الرومانية من التاريخ ، وبدأ ما يصح اعتباره التاريخ البيزنطي ، وقد اتحد ظهور العنصر اليوناني وقوة المؤثر الكنسي ، فوهبا الامبراطورية مظهرا جديدا •

وحين بدأ الصراع بن العرب المسلمين من جهة والروم من جهة ، كان الروم أقوى دولة في العالم دون منازع ، يقودهم هرقل أعظم أباطرة الروم وقادتهم ، وكانت معنويات الروم قادة وجنودا عالية جدا بعد انتصارهم على الفرس والآقار ، وكانوا أكثر حضارة من العرب المسلمين القادمين من الصحراء وأعرف بأساليب القتال وأعظم تجربة عملية في الحرب ، وأكثر عددا وأغنى مددا ولكنهم اندحروا أمام العرب المسلمين بالرغم من قوة في جيوشهم وقيادتهم لا من ضعف بهما كما يزعم قسم من المستشرقين وقسم من المستغربين •

وقد حاولت أن أسجل سيرة حياة هرقل الذي أرسل اليه النبي صلى الله عليه وسلم رسولا يدعوه وقومه الى الاسلام . لكي أظهر تهافت ادعاء أولئك المستشرقين والمستغربين الذي يزعم أن انتصــار العرب المسلمين كان لضعف الروم قيادة وجيشا ، ولم اعتمد على المصادر العربية والاسلامية في تسجيل هذه السيرة ، بل اعتمدت المصادر والمراجــع الأجنبيــة ، حتى أبطــل مزاعم المستشرقين والمستغربين ، وأبطل مايمكن أن يزعمه المقلدون لهم من انحيــاز المصادر العربية والاسلامية للعرب المسلمين على الروم وتحيزهم لبني جلدتهم وعقيدتهم على الروم ، وعلى كل فالحق ظاهر ولايمكن كتمانه ولو بعد حين .

وفي ١١ شباط (فبراير) ٦٤١م ، مات هرقــل ، فارتجت القســطنطينية لموته ، وارتجت الامبراطورية البيزنطية خاصة والعالم المسيحي عامة لرحيله ، اذ فقدت المسيحية بموته بطلا من أبطالها المعدودين : منقذ القدس من الفرس .

المراجع

التي ورد ذكرها ـ باختصار ، أو باسهاب ـ

في :

كتب ، معجمات : بلغات أجنبية ، ومترجمة الى العربية

المقالات

ربيع الأبرار ونصوص الأخبار :

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب :

(*) ما كتب باللغات الأجنبية ، شيء كثير جداً ، مبني على الدراسة والمشاهدة للآثار المنسوجة . والمختصون بشؤون المنسوجات قد وفوا هذا الموضوع في كتبهم ومجلاتهم المختصة .

صور من حضارة العراق في العصور السالفة : صناعة الحياكة والنسج :

الكوفية والعقال :

ملابس العراقيين وازياؤهم في العصور السالفة :

1. Baynes, N. H : The Byzantine Empire. London 1926.
2. Ostrogorowski, G : History of the Byzantine. Trans. Joan Hussey, Oxford 1956.
3. Vasiliev, A : The Byzantine Empire. Madison 1952.

الفهرست

الصفحة

مجلـــة
المجمع العلمـي العراقي

انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

تصدر اربعة اجزاء في السنة

سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريـد



توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع

- البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .
- البحوث والمقالات التي لا تنشر ، لا ترد الى اصحابها .

(العنوان : بغداد / الوزيرية / ص.ب. ٤٠٢٣)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٨٤

مطبعة المجمع العلمي العراقي ٣٠٠٠ / ١٩٨٤

الجزء الرابع
المجلد الخامس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي



محرم الحرام ١٤٠٥ هـ
تشرين الاول ١٩٨٤ م

